بعث الأمة العربية
ورسالتها إلى العالم
اللسان العربي

عنوان الكتاب : بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم اللسان العربي

المؤلف : وليد إخلاصي

تقديم : مالك صقور

اختيار : أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/85/ حزيران

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu.sy

زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية
ورسالتها إلى العالم
اللسان العربي

تقديم: أ.د. حسين جمعة
اختيار : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (86)

المدخل

إن الأمة من المرحلة التاريخية كالبذرة من موسمها؛ كلتاهما تنمو بتشعب العلاقة بينها وبين بيئتها الخاصة. إلا أن الأمة تزهو بتجاوب رحماني بينها وبين بيئتها الإنسانية تجاوباً تستقطب به نفوس أبنائها التيارات الفكرية، وتبعث بالرموز معاني. في حين أن البذرة تنمو وتزدهر بتفاعلها آلياً مع بيئتها الطبيعية.

أما البيئة الإنسانية فتتألف من العلم والصناعة من جهة، ومن المؤسسات الاجتماعية التي أورثها الأجداد للأحفاد من جهة ثانية. إنها تتألف من رموز تتحول لدى الوعي إلى معان يرتقي الذهن على مصاعدها نحو المفاهيم في مصادرها.

هذا فضلاً عن أن العلم ينسج قوام ا لفكر وأن اتصال الوجدان هذا بالطبيعة يجدد نسغ الحياة، وإنه بانسجام قطبي النفس هذين تنمو الشخصية أبداً.

وأن الصناعة بتين هيكل المجتمع وبها يخضع الإنسان ظروف البيئة لمشيئته، وعلى قدر انتشارها تقوم قاعدة المجتمع فسيحة في الطبيعة.

علم وصناعة: كلاهما يرجع التشتت في الآراء إلى الانسجام وكلاهما يحول الحياة من اتكال وخمول إلى نمو وسطوة.

والمؤسسات الاجتماعية هي أيضاً تجارب إلا أنها تجارب في أصول الحياة يشترك فيها الأحفاد مع الأجداد اشتراكاً يوفر به السلف على الخلف الجهد المبذول في سبيل الوصول إليها كما توفر عليهم تجارب إعلام البشر في الطبيعة الجهد المبذول في اكتسابها.

إن كلاً من المصلح والعالم ينهل من ينبوعي الحياة: الوجدان والطبيعة. إلا أن العالم يكشف عن الحقيقة الكونية بالتجربة في الطبيعة، في حين أن المصلح يستجلي آية الشؤون الإنسانية أي حقيقتها بالتجربة الرحمانية.

ونفوس أبناء الأمة تشتد باكتسابهم الشعور بحقيقتهم المثلى وبتجاوبهم رحمانياً مع المرحلة التاريخية كما تزهو الأحياء في بيئتها الطبيعية أو كما يزكو الإلهام بمواتاة العبارة البيانية لنزعته الفنية.

ولما كانت الحياة تجليات وكانت التجليات تندرج في الزمان اندراج الإلهام أنغاماً في الأنشودة، فقد أصبح شأن الإنسانية استقطاب هذه التجليات استقطاباً يرتقي به الذهن إلى الآية حكمة وجود التجليات ذاتها.

وعلى ذلك فإنما ينبغي من هذه الرسالة أولاً: استجلاء آية أمتنا كحقيقة تاريخية، وثانياً: إنشاء فلسفة عربية يتحول بها ما نسجته الحياة عفواً إلى مستوى من الشعور بحيث نشترك مع العناية في تعيين مصيرنا، نشترك بذلك هذه المرة ونحن أحرار.

لئن طلعت الحضارة الحديثة على العالم باكتشاف الأرض جرماً بين الأجرام السماوية فقد حملت الشؤون الإنسانية طابع هذا المطلع النسبي، نسبة الحوادث وتلازمتها في وحدة الطبيعية وإذا كان هذا المطلع قد قشع عن الطبيعة والنظام الذي كان يفصل الكون إلى عالم علوي وعالم

سفلي باعتبار الأرض وسطاً بينهما، قد قشع ذلك النظام الذي نسجه الإنسان من خياله رتيباً hièrarchique معبراً عن بنيانه ذي القوام الرتيب، فإنه حجب عن العقل الحديث معنى شؤون الحياة وعاق أعلام الحضارة الحديثة عن فقه كنه الإنسان؛ هذا رغم أنه أبلغ العلم غايته انسجام الطبيعة كلا وأجزاء في منظومة الجاذبية الكونين، أفلم تبد المعرفة من خلال هذا المطلع النسبي صوراً يدعو بعضها بعضاً في الوجدان دعوة الحوادث بعضها في الطبيعة؟!. أو لم نقم محاولة لإرجاع المناسبات بين الشؤون الإنسانية إلى العادة وجعلها بهذا الأرجاع خاضعة للعطالة على غرار الحوادث الكونية؟!.

وإذا كان اكتشاف الأرض كجرم في المنظومة الشمسية قد أدى إلى انقشاع نظام الطبقات عن الطبيعة فإن اكتشافها ككرة أيضاً قد أدى إلى زوال الطبقات عن المجتمع. تفتحت الدنيا باكتشاف أمريكا على آفاق جديدة تمارس فيها شعوب فتية فعاليتها خلواً من تقاليدها بحيث نتج انقلاب في الإنسانية مماثل لافتراق الحياة عن جنسيها: الحيوان والنبات. انقلاب انتقلت به الجماهير من حياة زراعية

إلى حياة تجارية متحولة أبداً خاضعة بتحولها لتيارات المدنية عائمة على موجها.

لكن اكتشاف الدنيا الجديدة هذا أقام الثروة مقام الأصالة فسبب بذلك ظهور رأسمالية عالمية على مسرح السياسة الدولية ت حرف الأمم عن غاياتها لتجعل فعاليتها وقفاً على مآرب اقتصادية كما حجب الطابع النسبي الذهن عن رؤية مراتب القيم في الفن والأخلاق.

وكذلك يرجع أ مر ظهور الطبقة العاملة على مسرح الحياة إلى اكتشاف الأرض بعلمي: الفيزياء والكيمياء، العلمين اللذين شيدت على معارفهما الصناعة الحديثة. والصناعة الحديثة أيضاً، أن مهدت للعامل أن ينازع البورجوازي على إدارة شؤون الدولة وأن يقيم العمل مقام رمزه الثروة، فإن المعمل لم يفتأ يفكك أواصر الأسرة والأمة ليقوم مقامهما باستقطاب العمال وتنظيم نقاباتهم على أسس دخيلة على طبيعة الحياة. حتى لقد أصبح العامل ملحقاً بالآلة خاضعاً لتطورها، منها يستمد نسغ حياته وبطبيعتها يتكيف قوام كيانه.

هكذا تقوم الحضارة الحديثة على تناقض مقوماتها. فمن جهة تقشع بنظرتها الانبثاقية الأوهام عن الطبيعة والتقاليد البالية عن الوجدان؛ ومن جهة أخرى تجعل طابع الحوادث الكونية ذا غلبة على صبوة الشؤون الإنسانية إلى المثل الأعلى وإلا فكيف التبست على أعلام الفكر الحديث الكتلة المادية بالكتلة البشرية فبدت لهم الحوادث الكونية والشؤون الإنسانية تخضع سواسية لقوانين طبيعية حتمية. أو كيف كان جازف هؤلاء بالزعم: "إن الحياة محصلة قوى الطبيعة" وإن الإنسانية هي ظل البيئة الاقتصادية؟

ولكن هل بدأت الشعوب الحديثة تفكيرها هذا بمسايرة تطورها لاكتشاف الأرض: موقعها في المنظومة الشمسية، ومجاهلها وبنيانها؟! أم كانت وجهة التطور هذه قد تعينت منذ فجر التاريخ حين أخذت الشعوب الهندية الأوروبية تقيم تشريعها على مبدأ الجوار وترجع مفهوم الأمة إلى العلاقات التاريخية الاقتصادية؟! بل حين أخذت الكلمة تتحول في لغات هذه الشعوب من صورة إلى رمز. من منظومة بيانية إلى لفظة دلالية ينعدم فيها الإعراب وتتضاءل الصلة

بينهـا وبـين شـقائقها الأخـرى حتـى أصـبح المعنـى ملتـصقاً بالصوت عرضاً واتفاقاً.

إن الكلمة إذا اقتنصت المعنى وهوت به من آفاق رفعته إلى سـطح الوجـدان تحكمـت العـادة فتحـول الـذهن. بهـذا الـتحكم مـن نـام إلى راكـد، وعندئـذ تتحـول الفـضيلة مـن الفيض إلى التقوى، وعندئذ يرجع بالإبداع من الانبثاق إلى صور متآلفة.

كـذلك هـي الـشعوب الهنديـة ــ الأوروبيـة تـتردد في تطورها بين النسبية والمادية فتبقى تارة على حدود الطبيعة وتدرك النظام الثابت بين حوادثها، وتضل تارة أخرى عن معنى الشؤون الإنسانية حتى ينتهي بها الشطط إلى تفسير الفن والأخلاق بالمادية الأنانية. ومع ذلك فإن هذه الشعوب تتناوب مع الساميين توجيه الحضارة.

أمـا اليـوم، وقـد تحـول العـالم عـن الأصـالة إلى دعـائم برانية تشيد عليها الأمم بنيانها فإن وجهة التحول هذه ترد ترجع به الإنسانية القهقرى على غرار تردي الأحياء من ذات الهيكل العظمي إلى ذات القوقعة.

***

بينما كانت الكلمة في اللغات الهندية الأوروبية تتحول من صورة إلى رمز، فتمهد بهذا التحول لذهن صاحبها أن يدرك النظام قانوناً في الكون، وعدلاً في المجتمع، وعقلاً في النفس، كان اللسان العربي يوجه ببنيانه الاشتقاقي ذهن متكلميه نحو المعنى الذي هو مصدر النظام. إن الكلمة العربية من المعنى الذي أنشأها بمثابة الجسد من النفس، تحمل طابعه وتكشف عنه حتى إذا ما اتجهت المشتقات متقاربة نحو الحدس تحول الحدس، مصدر الاشتقاق، من وميض إلى بصيرة. تتجاوب في منظومة أسرة الكلمات العربية المفهومات العقلية والمدلولات الحسية فتنمو بتجاوبهما الشخصية؛ إذ ليس للذهن إلا أن يساير وجهة التجاوب حتى يهتدي إلى بزوغ الحقائق.

كذلك هي الكلمة العربية: تدل على مصدر اشتقاقها، الحدس، دلالة الأنغام على الإلهام في الأنشودة.

وكيف كان للكلمة العربية هذه المزايا؟ اشتركت الحياة مع الإرادة في إنشائها مستندة إلى التعادل بالمداد بين الصوت وبين بوادر Expressions الهيجان الأخرى، فجاءت وكأنها وحي يوحى على لسان أحد النبيين، جاءت معبرة

عـن وجهـة نظـر الحيـاة ذاتهـا في أصـول الثقافـة Culture وملخصة لتاريخ تجارب الإنسانية في سبيلها نحو وضع أمثل. إن الكلمـة العربيـة امتـداد لبـادرة الـصوت الطبيعيـة في الهيجان: جذورها في الطبيعة ورائدها الملأ الأعلى. حتى إذا درست الكلمات العربية دراسة توليدية اهتدى الذهن على ضوئها إلى آية الأمة التي أنشأتها كحقيقة إنسانية. مثل اللسان العربي كمثل هيكل عظمي يوحي بكل من عظامه المبعثرة في طيات الأرض، خيال لنوع منشئه.

والحكمة المأثورة: "الأسماء تنزل من السماء" تشير إلى حدس أجدادنا في أصول كلامنا، الحدس الذي يتضمن الانسجام بين الغرائز والأشياء من جهة وبينها وبين المفاهيم التي تتلخص بها الغرائز والأشياء من جهة ثانية.

فإذا كانت الحياة تنمو بتجاوب قطبيها: الطبيعة والملأ الأعلى... الصورة والمعنى، تجاوباً تتصدع به عن مكنوناتها آيات "بينات"، وكان الميل إلى الصورة قد بلغ مداه ببلوغ نيوتن قانون الجاذبية، فإن الصبوة إلى المثل الأعلى قد تجلت في أجلى مظاهرها حين كان العربي يجنح إلى الحرية بمعنيها الانطلاق والأصالة. أفلم تبلغ الصبوة إلى المثل الأعلى

أشدها حين كان الإسلام والمسيحية يلقيان طابعهما العربي السامي على الحياة في القرون الوسطى؟ حين كانت هاتان الديانتان تقيمان شؤون الإنسانية على نظام رتيب تتعين مراتبه بمدى الصبوة إلى الحقيقة الإنسانية؟

وما الرسالة إذ لم تكن اقتباس المعرفة من الملأ الأعلى وتنظيم العالم على ضوء المعرفة المثلى؟ أفليست النبوة أصالة في المعرفة؟ أو ليست البطولة أصالة في العمل؟ فإذا كان للنبي حق الولاية على جمهور المؤمنين فقد تجلت في نفسه الآية تجربة مثلى، تجربة تتوق إليها النفوس كأمنية، إن مثل الجمهور من النبي كمثل فتاة تمارس الأمومة بألعابها طيفاً. تصبو النفوس جميعاً إلى النبوة وتترقب هذه الولادة، ولادة حقيقة المرحلة التاريخية.

وإذا هم رجوا قدوم المخلص من الخارج فما ذلك إلا عيادة المعنى المستفاض من الصميم. وما القلق المستحوذ عليهم، كما هي الحالة في كل ولادة. إلا كالنوء الذي يبشر بقرب الموسم. إن النبوة لم تفتأ تظهر، وإنما العناية تختار المصطفى لرسالتها. إننا نحن أيضاً نجسد بالنبي أمنيتنا فنتخذ منه لنا قدوة.

لكـن الـصبوة إلى الحقيقـة المثلـى تتفـاوت بـين النـاس فتـتعين بمـدى تفاوتهـا منزلـة الأفـراد في الهيئـة الاجتماعيـة، مدى دل عليه النظام الرتيب في القـرون الوسـطى. وإذا التبس على أجدادنا قوام بنيتهم الرتيب بالفضاء، وبدت لهم الأشـياء ذات رتـب، فـإنهم قـد اسـتعاروا مـن الـسماء صـورتها القبـة تعبيراً عن صبوتهم إلى المثل الأعلى بحيث التبس عليهم الرمز بالمعنى.

فقـد اتحـد النـاس في الحقيقـة طيلـة القـرون الوسـطى، وعنها اقتبس المؤمنـون الهالـة المقدسـة، ولـيس الاختلاف بـين ذلـك العهـد وبـين المرحلـة التاريخيـة الراهنـة إلا في اخـتلاف المعرفـة الطبيعيـة ذات الطـابع النـسبي عـن المعرفـة الإنـسانية ذات الـصبوة المثاليـة. ومـع ذلـك فـإن كـلا العهـدين قـد اتخـذ التجربة مدخلاً والحقيقة أمنية.

وإذا اشتقت العبقرية العربيـة كلمـتي ذكـاء (اللمعـة في الـنفس) وذكـاء (اللمعـة في الطبيعـة: أي الـشمس) مـن ذات المصدر فقد دلت على أن هاتين الحضارتين، العربية السامية واليونانيـة الأوروبيـة، وتتلازمـان تلازمـاً يبقـى فيـه النظـام الشمسي رمزاً خالـداً للحقيقـة الإنـسانية علـى أن يتحـول هـذا

النظام النسبي المندرجة أجزاؤه على مستوى واحد في المكان إلى نظام ذي رتب متفاوتة بالرفعة في الوجدان.

ورسالة العرب في هذه المرحلة التاريخية هي خلق عالم تنسجم فيه الطبيعة مع الإنسانية.

***

إن الحياة منظومة مغلقة في جميع الأحياء إلا في الإنسان فإنها تبقى ذات صبوة إلى الملأ الأعلى مثل الإنسان من الوجود بذاته كمثل الجنين من أمه، يتصل رحمانياً بمصدر كينونته وكلمة رحمان تدل برمزها الرحم على هذا الاتصال، وإذا كان الإنسان قد أنشأ المدنية والثقافة فرسم بالأولى قاعدة كيانه في الطبيعة وحرر مشيئته من ضرورات البيئة وخلق بالثانية ذاته نامية وشيد بها صرح الإنسانية صرحاً متعالياً، فذلك لأن العبارة تقصر عن المعنى في الحياة ولأن الطبيعة لا تستنفد الملأ الأعلى.

ومع هذا فإن المدنية والثقافة، وجهتي الحضارة، تختلفان بذلك، فالأولى تساير الطبيعة فتبقى مفاهيمها على مستوى الحوادث الكونية، مستوى يجعل العلم والصناعة،

اللذين هما قوامها، يتقدمان تقدماً مطرد، والثانية تتأرجح بين مأخذ رموزها وبين آياتها، بين الطبيعة والملأ الأعلى، تأرجحاً يحلق فيه الذهن آفاق متفاوتة بالرفعة بحيث تزداد صعوبة التقدم في هذا المنحى، أولاً يستلزم فهم الثقافة، فضلاً عما تقدم، ذوقاً أصيلاً وخيالاً فنياً يحول بها الإنسان الرموز إلى معان ويبقى بهما الذهن على اتصال رحماني بالحقيقة؟!

إن ما أوحي إلى الشعوب السامية نظرتها في تاريخ الكائنات تلك النظرة التي بدا فيها تطور الإنسانية، على مراحل وكل من مراحلها قبة: صورتها مقتبسة من قبة السماء، ومعناها مستلهم من وثبة الحياة، إن ما أوحى إليهم ذلك هو مسايرة الثقافة للحياة بالخضوع للمداد rythme، لمداد يتراوح بين النوم واليقظة بين العادة والإبداع، بين الحضيض والأوج. وإذا استعار الساميون القبة من السماء كصورة مجازية يعبرون بها عن كل من مراحل التاريخ فقد رمزوا بهذه الصورة إلى بنيان الإنسانية ذي القوام الرتيب، بنيان يمس بقاعدته الضرورة كما تمس السماء الأرض بأطرافها ويدرك بصبوته الحرية، حرية الإشراف على العلة

والصيرورة، إن هذه الصورة الشعرية لتنطوي على الحدس في صبوة الإخوان صبوة مشتركة وفي تضامنهم جميعاً بالمسؤولية.

تمثلت الإنسانية في الذهن العربي عن مثال الحياة. فكما اشتق هذا الذهن كلمتي رشيم وشيخوخة اللتين تشيران إلى حدي نمو الحياة الأولى من (رشم بمعنى رسم) فعبر بها عن مبدأ الحياة كمصور، والثانية من (شاخ، شاخ الزهر بمعنى تفتح عن مكنوناته) فعبر بها عن استكمال الحياة شروط نموها، أدرك أيضاً بتطور كل من مراحل الإنسانية معنى بدئياً في حلة جديدة، وأدرك أن النفوس جميعاً تنزع إلى معنى شؤون المرحلة التاريخية كنزعة الأنغام لدى تمثلها في الذهن إلى إلهام الأنشودة، نزعة تجيب العناية عليها ببدور الآية: في النفس كان هذا البدور أم في الرسالة.

إن الرسالة من المرحلة التاريخية بمثابة نبرة الإيقاع في الأنشودة: تتجلى فيها نزعات الجمهور الغامضة آيات بينة فيهتدي الناس على شفقها إلى تحقيق الأمنية. مثل الرسالة في النفوس المتعثرة في الولادة، ولادة معنى المرحلة التاريخية، كمثل الرعد الذي يفجر بدويه الينابيع الطامسة، ولكن

متى ما انبعثت الرسالة من خلال التقاليد البالية تجلت هي في العالم النظام قيم بديئاً وأصبح المجتمع بهذا التجلي كما يصبح وجه الأرض بعد اندفاع الحمم ذا طوبوغرافية (تشكل) جديدة.

إن النبي إذ يضفي وراء تجربته المثلى على القيم الإنسانية، الخالدة منها والمستجدة، فإنما يؤلف بينها بهذا الرواء فيجعل الطبيعة والإنسانية تكتسبان وضوحاً من المعنى الذي تجسد فيه كرسالة. وكلمة عقيدة تدل بصورتها الحسية عقد على أن وجهتي الحياة تتماثلان تكويناً: انعقاد الجنين في الرحم وانبثاق العقيدة في النفس. وكما تنتقل الحياة من الخلية المولدة (الجرثومة إلى الخلايا المتفرعة عنها في المكان والمتتابعة في الزمان انتقال المشعل بين الرياضيين في جولتهم حول الوطن، تنتقل العقيدة أيضاً عبر الأجيال مستندة إلى الأفراد مستمدة منهم نسغ قوامها، مثل العقيدة في انتقالها عبر الأجيال كمثل الدالية التي تعرش على مسافات شاسعة باستنادها إلى اتصال الجذع بالأرض بين الفينة والفينة.

ولكن إذا التبس الرمز بالمعنى عند نهاية المطاف هبط الناس منحدرين عن مستوى الغريزة. كذلك ترددت ثقافتنا في أواخر القرون الوسطى فانتهى بنا الأمر إلى تحول المعرفة إلى (سفسطة) وتحول الأخلاق إلى (دروشة).

أما اليوم، وقد استيقظنا من ثباتنا على ضوء الحضارة الحديثة وانقشعت عنا الأوهام بتأثير المعارف العلمية، تلك الأوهام التي تحصل من التباس الوجدان بالطبيعة، فما علينا إذن إلا استكمال شروط هذه اليقظة بالعودة إلى الحياة في ينبوعيها: الإنسانية والطبيعة. ونحن إذا كنا نبلغ الطبيعة بالعلم فإننا نرتقي إلى الإنسانية بفقه تراثنا. ومتى استكملنا شروط نهضتنا بإنشاء قاعدة كياننا إنشاء متناسباً مع تقدم العلم والصناعة تمكنا من خلق ثقافة إنسانية رفعتها على مقياس فسحة قاعدة حياتنا في الطبيعة وعندئذ نتمكن من ردع الثقافة الحديثة عن شططها في فهم الإنسان كما ردعنا العلم الحديث عن شططنا في فهم الطبيعة.

ولكن بعثنا لن يكون بعث فعالية تتناول سطح الحياة وحسب. كما هي الحال في الأمم التي انطلقت قواها بتأثير التقدم في العلم والصناعة. بل إنه سيكون بعث فعالية تتجه

نحو الصميم بحيث ينكشف معنى المرحلة التاريخية معرفة ورسالة انكشاف إلهام الأنشودة في الوجدان شعوراً وحركة، لقد قيل إنه إذا ما استكمل الجنين شروط نموه في الرحم فتح فاه فهبط عليه الروح من الملأ الأعلى فطلع على العالم كائناً حياً. إنه لقول ينطبق على الأمم التي تحررت فيها كوامن الحياة فأخذت ترتقب معنى ثقافتها من رسالة العرب.

الوضع البالي

أصبح مثلنا، نحن العرب، كمثل أهل الكهف عندما استيقظنا من سباتنا، سبات انزوت فيه أجيالنا عن سير التاريخ عصوراً مديدة، فبدت مظاهر حياتنا البالية، عرفنا وتقاليدنا، مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية، حتى قوالب فكرنا وعملنا وكأن تراثنا قوقعة تصدعت وتداعت لدى اصطدامها المفاجئ بموجة المدينة الحديثة. حتى لقد أصبحت قشور هذه القوقعة تحجبنا عن حاضرنا وتعوق ملائمتنا للبيئة المستجدة.

ولكن أحداثنا أخذوا يتطلعون إلى هذه الموجة وهم يصبون إلى غاياتها صبوة الأصداف بين فترات الأمواج إلى الشمس التي تجدد بها حيويتها، مستسلمين لتياراتها مع النفرة من ماضيهم نفرة متزايدة.

أمـا الـشيوخ، وقـد التبـست نفوسـهم بانحنـاءات ذلـك الـتراث وألفـت اعوجاجاتـه، فقـد وقفـوا مبهـوتين أمـام موجـة المدنيــة، حيــارى مــن طغيانهــا، مستوحــشين مــن معظــم مظاهرها.

لقد استحوذ القلق على أبنـاء الجيـل في هـذان البحـران، وأصبـح اضـطراب الجمهـور متواصـلاً؛ تتجـاوب أصـداؤه بـين خليج البصـرة وجبل طارق. وإذا كانت النفوس المضطرمة لم تبلغ غاياتها من تحقيـق مـا يكمـن فيهـا مـن أمـان وآمـال فـإن القيادة نفسها قد قصرت عـن إدراك شـأنها حتـى تستقل عـن إرادة الأجنبي.

ومع ذلك فلم يتمكن اليأس من قلب تتـدفق فيـه الحيـاة وتفـيض. وهـل عـرف التـاريخ قومـاً أغـزر مـن العـرب حيويـة وأبقى منهم على الدهور؟!

فبينما تظهر الشعوب على مسرح الوجود ثم تتـوارى عنـه تسطع الأمة العربية على العـالم منـارة يهـدي شـفقها الـشعوب سواء السبيل.

***

في مطلع القرون الوسطى، حين فاضت الأمة العربية على العالم بأبنائها طوائف، تبرئ الشعوب من آثامها وتطهرها من إفرازها كفيض البحيرة على أطرافها، اعتلت ا لشعوب الفيض اعتلاء الحشرات الضامرة على الموج فسكبت في الينبوع سمومها حتى أفسدت مبعث انتعاشها.

لقد استغفلنا الأغيار أبان نهضتنا، استغفلونا إذ كنا نزهو بروعة بطولتنا فغشوا حقيقتنا كما يغشي البرغش الزهر المتفتح على طلعة الشمس. وأحاق الدخلاء بنيان أمتنا بسموم أفرزتها قرائحهم المتردية فأمسى مثلنا كمثل خوارق الحيوانات في الأدوار القديمة، كمثل حيوانات نسجت حولها الحشرات قوقعة من الإفرازات لتجعل من جثمانها فريسة يتطفل عليها أحفادها.

لما طغى الأغيار بيئتنا انحرف قوام إنسانيتنا وتجوفت مؤسساتنا من جراء الانحراف حتى جف فيها نسغ الحياة. وتحول تراثنا إذ ذاك إلى ظلف يعوق الآمال عن الانطلاق، وتردى مجتمعنا إلى مستنقع تعيث فيه الأنانية. إن الأنانية في النفس إنما هي نتيجة تغلب الظروف على الفرد، إن هي إلا شعور بالانهيار، وتقلص في الرحمة، وعمه في البصيرة. في

تلك العهود المظلمة طمست القيم النبيلة بإهمال عبارتها وانحدرت أصول الحياة من جراء هذا الإهمال، حتى تحول الفيض إلى تقوى.

ولكن هل وقف الأعاجم عند إزاحة مجتمعنا عن حقيقته؟ لا، ولا عند إخراج العربي عن محور شخصيته. فقد نفذوا إلى صميم أصالتنا، فبالهجانة أفسدوها وبالانتخاب المتدني استنزلوها إلى أن غارت في بنيتنا قواعد خصائلنا الكريمة، ولما طغى الدخيل والهجين على بيئتنا تقلصت مشاعرنا الرحمانية وعمت بصائرنا في الشؤون الإنسانية. جدب وعمه، بهما تمسخ الحياة وتتحول من الازدهار إلى القرمة.

لقد زاغت المؤسسات العامة يوم ذاك عن حقائقها واختل نظام القيم في مجتمعنا، بحيث انحط العربي عن أفق رفعته في التربية والفطرة فأمسى مثله كمثل فراشة خلعت زينتها وجوانحها على الأنامل فسقطت على الأرض هامدة. ولئن عوضت عن حسنها بدرع يقي ما تبقى لها من الحياة فإنها ظلت في الأوحال دودة زاحفة. في العهود السحيقة حين

زاغت مظاهر الحياة عن الحقيقة تقلص العربي عن المدينة آوياً إلى الأرياف.

يتدنى الإنسان إذا انفلتت في منظومة الحياة الميول الدنيئة من ولاية الميول الرفيعة وإذا ت حول محور الحياة من البنية إلى البيئة بحيث تتراخى صلة الرحم وتتلاشى الأحساب والأنساب فيصبح الناس عندئذ رعاعاً يلبسون لكل حالة لبوسها.

وفي جو كهذا تفرض على الوجدان قواعد الفكر والعمل فيبدو على مناحي الحياة الهرم كرهبة من الإبداع ونفرة من الطبيعة وأعراض عن المحسوس واسترسال في الأحلام حتى يصبح الناس يوجسون من خطر الموت في كل حركة.

هكذا كانت القرون الوسطى المحتضرة، تحولت فيها شؤون الحياة إلى تقليد وذكرى.

***

أصبح العرب على هذه المرحلة التاريخية صبوح نقف برز من قوقعته ولما يتحرر من قشورها، يحملون تقاليد القرون

الوسطى، ويحملونها بالية. يحملون تقاليد عصور أعرض فيها الإنسان عن الحياة في ينبوعيها: الطبيعة والإنسانية، فرقت بنيته بهذا الأعراض، رقت باقتراب قطبيها: الصورة والمعنى فانتهى الأمر بذلك إلى الدروشة في العمل والسفسطة في المعرفة. دروشة وسفسطة، كلاهما من الدخيل وكلاهما يكشف بنشأته عن حالة طارئة.

التبست على الناس في القرون الوسطى الحقيقة بعبارتها فانتقلت قدسية المعنى بهذا الالتباس إلى الظروف التي تجلى فيها بطلاً تجلياً أخذت الأجيال تنسج على مثاله هويتها نسخاً باهتة بحيث تردى الناس وانتكست الأجيال على سكب مشاعرها في قوالب الماضي البالية.

ومتى كانت الحياة ترديا وانتكاساً؟!

ولما انصرف الناس إلى قشور الحياة. المجردات في المعرفة والزهد في العمل، أخذت نفوسهم تقتات من فضلا العصور البائدة. وإنهم كانوا يرجون، عبثاً، الخلاص ببتر الصلات بين الحياة والطبيعة، بتراً تتفرغ به نفوسهم لرؤية باريها. إن الجسد ليس من جهنم كما زعم الناسك بل هو

قاعدة النفس في الوجود وصورتها. به تصدر الرحمة والعدل اللذان هما قوتها. إنما الناسك كمن يعيش في المنام.

فمتى تبرم الإنسان من الحياة ونبذها توارث عنه وحرمته من بهجتها وسرورها. إن آفات القرون الوسطى هي الثنائية في المعرفة والطبقات في الكون وتراخي الصلات بين ظواهر الطبيعة وبين أبناء الأمة فذلك إن دل على أمر فإنما يدل على صورة نفس هزيلة أدركت من خلال بنيانها المتداعي، الوجود مشتتاً هامداً.

وإذا جفت الحياة في العهود السحيقة وفرضت الواجبات على الناس وتحول الإبداع إلى بدعة وأمست الديانة ترويضاً على الذل والاستكانة، فذلك لأن الحياة قد زحلت فيها المظاهر عن محورها وانقصمت العبارة عن المعنى. ومتى كانت الحياة اجتراراً وتقوى؟ أو متى كانت الديانة تعزية بالآخرة؟!

لما ضاق على الناس أفق الوجود تقلصت فيهم الحياة إلى ظلف من الأنانية مخلدة إلى السكينة حتى الجمود مستسلمة للظروف خاضعة لأراجيفها.

استسلام وخضوع: كلاهما يجعل الإنسان مادياً وأنانياً ودنيئاً.

***

استيقظ أبناء هذا الجيل على طلعة المدنية الحديثة يقظة الدوافن (الزواحف ذات الدم البارد) من سباتها على تباشير الربيع. وليتها لم تكن يقظة قد رافقها احتلال الأجنبي لبلادنا.

كانت فرنسا تزعم بأنها تحمل إلينا منارة الحضارة وإذا بها تضلنا عن أصول العلم وتقصينا عن منهل الثقافة. كانت سياسة الانتداب قد عجلت بانهيار الرداء البالي عن بيئتنا، ذلك الرداء الذي نسجته العهود البائدة من إفرازاتها. فقد أغوت رجال الدين والوجهاء واصطنعت الزعماء ثم فضحت هوياتهم المزيفة. ولكن هذه الدولة كانت تبتغي من عرض الزعماء عراة من أقنعتهم فطم الجمهور عن السياسة.

ولكن هل تركن العواصف في البراري التي اقتلعت أشجارها.

توهمت فرنسا بأنها تضمن بهذه السياسة مصالحها، إذ كانت تدرك من خلال بنيانها الفاسد مناحي ضعفنا. فهل كانت أسباب محنتها الأخيرة غير نفس أسباب انهيار وضعنا!

إن سياسة الانتداب كالسيل الذي يخلع الصخور المتراكمة هرماً فيكشف عن المعادن الكريمة المخبأة تحت الردم وإلا فهل كانت عظمة المسيح قد سطعت ببهائها على العالم لو لم يحتل الرومان أورشليم؟! أم كانت الشعوب الدنيئة رأت في يهود صورتها المتردية.

لكن المسيح لم يجد حوله في الجمهور اليهودي، من لم يخطئ ليلقي على الزانية حجراً. في حين أن عرب الجاهلية تفرد من بينهم "أبو رغال" بخيانة قومه فاستحق لعنة الأجيال وظل ضريحه يتلقى، إلى اليوم، حجراً من كل عابر سبيل.

ولنعترف فيما بيننا، اليوم، بمن أصبحنا أشبه. أباليهود أم بأجدادنا العرب؟ أليس القلق المستحوذ علينا هو شعورنا بتخلفنا عن حقيقتنا؟!

إن الأمة التي تخضع لمشيئة غيرها تتلقى منه قواعد فكرها وعملها فيمسخ أبناؤها، عندئذ، حرافيش

(جـوكـر) لـدى مـن يقـود شـؤونها. إن الأمـة الـتي تفقـد استقلالها تتخلى عن مقدساتها فتزول بهذا التخلي حكمة وجودها. أما أبناؤها فلن يبرروا تخاذلهم بالغفلة أثناء المحنة إلا حين يغسلون عارهم بدمائهم.

وإذا كـان الجمهـور العربـي لم يفتـأ يـضطرم فيـسطع كوكباً أثناء المحنة (الانتداب) فإنه سرعان ما كان يتناثر تناثر اليراع في مهب الرياح. أو من العجب أن يكون الأمر كذلك؟! أفليس الزعيم صورة الجمهور، الصورة التي يرى فيها الناس آمالهم وأمانيهم مجسدة؟! ولكن إذا ساءت المرآة تشوه الوجه وأصبح قبح المنظر يبعث بشعور النفرة من صاحب السحنة وكذلك الزعيم إذا خس وتدنى أثار نفرة الجمهور من الشؤون العامة. وكلمتا: "وجه" و"وجيه" تشيران بأصلهما المشترك إلى أن الوجيه من الأمة بمثابة الوجه في الجسد.

وهل كانت سياسة الانتداب تقف عند هذا الحد أم أنها تعدته إلى دعائم حقيقتنا؟!

لقد تسلط الأجنبي على مؤسساتنا القومية وحروفها عن غاياتها الأصلية. ولقد نفذ إلى مصيرنا فأخضعنا لمشيئته خضوعاً فقدت به قوام إنسانيتنا.

تفككت في عهد الانتداب أواصر الرحم وضئولت عواطف المودة بين ذوي القربى وزالت الثقة بالنفس، فانحدر الناس من جراء ذلك حتى الدرك الأسفل، ولما سطت النزعات المادية على مجتمعنا تبدل فيه نظام القيم من رتيب إلى متدني فانتهى الأمر بأن أصبح الملموس معياراً للحقيقة وبأن قامت الوسيلة مقام الغاية. فأينما اتجهت رأيت القبح بادياً على مظاهر الحياة. فكم كنا نستغيث بإسرافيل كي ينفخ في هذه "الجبانة"[1] فيبعث بهياكلها أحياء.

ومع ذلك لم يأخذ اليأس منا مأخذاً. وكيف يكون ذلك ونحن أبناء أمة أصولها في الملأ الأعلى وبنيانها مستفاض فيضاً!

فمهما انحرف المجتمع العربي عن أصوله وزاغ العربي عن محور شخصيته فالعروبة تبقى متصلة بينبوع الحياة

---

[1] قبر يضم أجداث عدد من الموتى.

مستمدة منه نسغ كيانها. إن الأمة العربية لم تكن شهاباً قد خطف البصر بسرعته، ثم مضى كما خيل للأعاجم، بل إنها منارة يتموج شفقها تموج الحياة ذاتها.

***

مثل الأمة كمثل أبي الهول (اسفنكس) في الأسطورة المصرية، تتجدد في كل جيل من أجيال أبنائها كما كان يبعث اسفنكس حياً من رماده في كل سنة. إن الأمة تبقى بنجوة من عوارض المكان والزمان إذا كانت جذورها في الملأ الأعلى وأن تخس النفس أو تجف الحياة فذلك لأن المظاهر لم تنسجم مع أصولها. يعتري الناس الضمور من تباين ما انطوت عليه نفوسهم من تيارات المرحلة التاريخية، ومن تخلف ميولهم عن أغراضها، وكما يغور الشعور في الهيجان من تقصير البوادر عن البيان، وكما يتشنج الوجه من تخلف العبارة عن النية في النفس يحصل الهرم في الثقافة من ابتعاد الأفكار عن الحقيقة.

إن الحياة تستمد قوتها من البيئة. فإن بقي الإنسان صاحب الحياة في عزلة عن تيارات المدنية أو محجماً عن

الاتصال الرحماني مع إخوانه في الهيئة الاجتماعية أصبح فاتر الحس فاسد البنية. والمجتمع ذو النزعات الانعزالية إن تأخر في اندثاره بتأثير ما لديه من ترات مثله مثل الكوكب الذي ينثر نوره في العالم حتى ما بعد انطفاء مصدر الإشعاع، فسرعان ما يستحيل الأفراد أنفسهم إلى رعاع متطفلين، يستعيرون عن الغير ثقافات طارئة، منزوين في ملجأ يلائم طبيعتهم المتردية. وهل ينهض الطائر إلا بما ينبت عليه من ريش؟ أم هل يحرص الإنسان على الحقائق التي لم تنبعث عنه شعوراً؟

إن النفس، أن تزحف مذعورة، فإن الذعر من تجويفها. فإنها تحمل جسمها المتردي دفيناً إلى القبر. وإذا نزع أحداثنا إلى التحرر من هذه البيئة فإنما هذه نزعة النقف إلى خلع القشرة التي تعوقه عن الحرية. فبالحرية تنمو النفس وبها تشتد ذكوة الحياة. وليس الانقلاب إلا الثورة على الدخيل والبالي اللذين يعوقان المرء عن بلوغ الأمنية.

وما شأن الطب؟ إذا لم يكن إزاحة الدخيل عن الجسم وإيقاف أذاه ريثما تعمر الحياة عطبها:

وأما الحرية فتحصل من انسجام مظاهر الحياة مع أصولها انسجاماً تتجاوب به الفكرة مع عبارتها فيفيض الوجدان بهذا التجاوب شعوراً يرتقي عليه صاحب الفيض نحو غايته متفائلاً. إنما البعث هو بعث الحياة المتبلورة تجلياتها رموزاً. فمثل النفس من حالاتها كمثل الشمس التي توقظ الحياة الراقدة في ا لأصداف.

***

تنزع الحياة إلى تحقيق ما يمكن فيها من أمان وآمال وتحمل، بنزعتها، أبناءها على تذليل الصعوبات متعاونين؛ حتى إذا ما عاقها وضع بال أو عرف دخيل أو ميل هجين ثارت عليه وأشركت في ثورتها المنحدرين منها والحاملين ميولها. تنشئ الحياة بيئتها نزاً فتجعل منها جواً يزهو في أبناؤها متكاملين.

ولكن إذا قصر العرب عن معالجة شؤونهم في عهدي الاحتلال العثماني والانتداب، فقد تبنى الدخلاء وهم مقنعون بالعروبة والإسلام، الشؤون العامة فألهونا بضجة مصطنعة عما كان يكتنفنا من أخطار. لقد تآمر الأغيار

علينا انتقاماً لدولتهم، الدولة العثمانية واستكلبوا على رعاية الأجنبي حرصاً على الأملاك التي سلبوها من أجدادنا، وقد اصطنع أحفاد العثمانيين من بيئتنا جواً موبوءاً تترسب فيه الندالة والسفالة سبلاً حتى أصبح الميل سوياً. وعبثاً كانت الضحايا تهدر تلو الضحايا في سبيل الغاية.

وهل ترك الأجانب لنا متسعاً من الوقت لرؤية مشاكلنا ومعالجتها بما تستحق من العناية؟

أما اليوم، وقد آل أمرنا إلينا. على الرغم من كل مؤامرة ودسيسة، فقد أصبح من واجباتنا الأولى أن نجابه المشاكل التي تعترض نهضتنا فندرأ الأخطار التي تحيق بكياننا مجابهة نشرك فيها الجمهور بالعمل من أجل تقويم الاعوجاج.

***

وما هي مشاكلنا؟ مم نشكو نحن العرب.

إن الشكوى التي تدور على الأفواه هي عن تخلفنا عن الأمم في نهضتنا؛ فشبابنا يشكو من رجعة الجمهور القهقرى إلى ظروف قد فات أوانها، يشكو من سكب

المشاعر المستحدثة من المرحلة التاريخية الراهنة في قوالب الماضي البالية. والجمهور يضج من تفرق أمتنا إلى طوائف ومن تباين النزعات في حل أمهات المسائل.

أكانت الحياة لتنهج سبيل الهرم فتستغرق فيما مضى؟ أم كانت لتنشئ المستقبل على ضوء العبر؟

أكانت الأمة لتقوم على التشتت والتفرقة؟ أم كانت لتجمع شملها فتمهد سبيل الارتقاء إلى تحقيق الأماني؟

إن القلق المستحوذ على نفوسنا إنما هو شعورنا بانحراف مؤسساتنا عن أصولها، وتحول تراثنا إلى رموز هائمة هيام الأوراق المنفصمة عن أغصانها.

ومتى كان التراث ليحجب النفوس عن منهل الحياة؟ وهو الذي يعينهم في صبوتهم إلى المثل الأعلى.

إن ما يبدو من فتور في التحسس ومن إبهام في الشعور إنما هو نتيجة حياة نحياها على الهامش منزويين عن سير التاريخ.

إن ما يبدو من قبح وبشاعة على مظاهر حياتنا ليس سوى رمز هذا الانحراف. وإلى هذا الانحراف يرجع العقم في

منـاحي حياتنـا ، عقـم في الأدب والفـن ، عقـم في التـشريع والـسياسة ، عقـم في العلـم والـصناعة أفليس كـل مـا لـدينا مقتبساً عن الغير أو مستعاراً؟

وكيف نتمكن من حل مشاكلنا وقد جفت الحياة في شيوخنا ، ونفذ شعاعها في كهولنا؟

لقد أبقى الدهر لنا بنجوة عن الدخيل والفساد البالي النساء والأطفال والعمال. فالتوجه إليهم بعنايتنا فنذكي فيهم الشعور بالعزة القومية وننمي فيهم الحرص على المصالح العامة.

وإذ ما انطلقت القوى الكامنة في الجمهور ، وفيه غزرت الحياة لقربها من الينبوع ، يتدفق الشعور كالسيل الذي يقلع كل ما تراكم في مسيره من عثرات. مثل الجمهور في سيره كمثل الثلاجة التي تقلع الصخور. فتكتسب بالعثرات ، إذا اندرجت فيها ، قوة تمهد بها السبيل.وبهذا التيار تنجرف التقاليد البالية والعادات الدخيلة على البيئة وحتى الذين تعثرت بهم الأمة في نهضتها.

ولما كنا نشترك في بعض هذه المشاكل مع الأمم الأخرى ، فقد أصبح الواجب يدعونا إلى الاستفادة من

تجـارب الـسباقين في مـضمار الحـضارة، مـن التجـارب الـتي تحـرر بهـا الفـرد مـن تقاليـد البيئـة واسـتبداد الطغـاة، مـن التجـارب الـتي اسـتقلت بهـا الأمـم بحـسب وجهـة نظرهـا في الحياة.

***

ملحق

نقدم فيما يلي "مقتطفات من كتب أشهر المستعربين أمثال ابن المقفع، والفارابي، وابن سينا، والغزالي. ونترك للقارئ أمر تقدير ما كان لهؤلاء الكتاب من تأثير سيء على الفكر العربي وعلى أسلوب بيانه:

ابن المقفع:

قال في كتابه (الأدب الكبير): "إن ابتليت بصحبة السلطان، فعليك بطول المواظبة في غير معاقبة، ولا يحدثن لك الاستئناس به غفلة ولا تهاوناً"، تبصر ما في الوالي من أخلاق التي تحب له والتي تكره، وما هو عليه من الرأي الذي ترضى له والذي لا ترضى، ثم لا تكابرنه بالتحويل له عما يحب ويكره إلى ما تحب وتكره"، "وإن ذكرك ذاكر

عنـد الـسلطان بـسوء في وجهـك أو في غيبتـك، فـلا يـرين الـسلطان ولا غـيره منـك اختلاطـاً لـذلك ولا اغتياظـاً ولا ضجراً"؛ "جانب المسخوط عليه والظنين به عند السلطان ولا يجمعك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تظهرن له عذراً ولا تثنين عليه خيراً عند أحد من الناس"؛ "وإذا كلمك الوالي فاصغ إلى كلامـه ولا تـشغل طرفـك عنـه بنظـر إلى غـيره، ولا أطرافك بعمل ولا قلبك بحديث نفس واحذر هذه الخصلة من نفسك وتعهدها بجهدك"؛ "لا تشكون إلى وزراء السلطان ودخلائه ما اطلعت عليه من رأي تكرهه له فإنك لا تزيد على أن تفطنهم بهواه أو تقربهم منه، وتغريهم بتزيين ذلك والميل عليك معه"؛ "فذلل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي السلطان وقررها على أن السلطان إنما كان سلطاناً لتعصبه في رأيه وهواه وأمره ولا تكلفه اتباعك وتغضب من خلافه إياك"؛ لا تكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعته في المكروه عندك وموافقته فيما خالفك وتقدير الأمور على أهوائه دون هواك على أن لا تكتمه سرك ولا تستطلعه ما كتمك وتخفي ما أطلعك عليه عن الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به وعلى الاجتهاد

في رضاه والتلطف بحاجته والتثبيت لحجته والتصديق لمقالته والتزيين لرأيه وعلى قلة الامتعاض لما فعل إذا أساء، وترك الامتهان لما فعل إذا أحسن، وكثرة النشر لمحاسنه وحسن الستر لمساوئه والمقاربة لمن قارب وإن كانوا بعداء والمباعدة لمن باعد وإن كانوا قرباء والاهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به والحفظ لهم وإن ضيعوا والذكر لهم وإن نسوا والتخفيف عنه من مؤونتك والاحتمال له كل مؤونة والرضى منه بالعفو وقلة الرضا من نفسك له إلا بالاجتهاد".

***

الفارابي: من كتابه "المدينة الفاضلة".

"القول في تعاقب الصور على الهيولي".

وعلى هذه الجهات يكون وجودها أولاً فإذا وجدت فسبيلها أن تبقى وتدوم ولكن لما كان هذه حاله من الموجودات قوامه من مادة وصورة، وكانت الصورة متضادة. وكل مادة فإن شأنها أن توجد لها هذه الصورة وضدها فصار لكل واحد من هذه الأجسام حق واستئهال بمادته فالذي يحق صورته أن يبقى على الوجود الذي له والذي يحق

له بحق مادته أن يوجد وجوداً آخر مضادة للوجود الذي هو له وإذا كان لا يمكن أن يوفي هذين معاً في وقت واحد ولزم ضرورة أن يوفي هذا مرة فيوجد ويبقى مدة ما محفوظ الوجود ثم يتلف ويوجد ضده ثم يبقى ذلك وكذلك أبداً فإنه ليس وجود أحدهما أولى من وجود الآخر ولا بقاء الآخر إذ كان لكل واحد منهما قسماً من الوجود والبقاء، وأيضاً فإن المادة الواحدة لما كانت مشتركة بين ضدين وكان قوام كل واحد من الضدين بها ولم تكن المادة أولى بأحد الضدين دون الآخر ولم يمكن أن تجعل لكليهما في وقت واحد لزم ضرورة أن تعطي تلك المادة أحياناً هذا الضد وأحياناً ذلك الضد ويعاقب بينها فيصير كل واحد منها كان له حقاً عند الآخر ويكون عنده شيء ما لغيره وعند غيره شيء هو له فعند كل واحد منهما حق ما ينبغي أن يعيد إلى كل واحد من كل واحد فالعدل في هذا أن يوجد مادة هذا فيعطي ذلك أو يوجد مادة ذلك فيعطي هذا فيعاقب ذلك بينهما فلأجل الحاجة إلى توفية العدل في هذه الموجودات لم يمكن أن يبقى الشيء الواحد دائماً على أنه واحد بالعدد فجعل بقاؤه الدهر كله على أنه واحد بالنوع...

***

ابن سينا في كتابه النفس:

في تقرير أنه ليس شيء من القوى النفسانية بحادث عن امتزاج العناصر بل وارد عليها من خارج الأشياء المختلفة مهما تركبت وحصل في المركب صورة فإما أن تكون مائلة إلى شيء من صور البسائط أو لا تكون كذلك. فإن لم تكن كذلك فإما أن تكون حاصلة عن جملة صور البسائط بحسب مفارقة التساوي وإما أن لا تكون منتمية إلى شيء من صور البسائط بل تكون صورة زائدة على مقتضى صور البسائط بحسب اعتبارها بالبسائط وبحسب اعتبارها بالتركيب. أما مثال القسم الأول فالطعم المائل إلى المرارة عند تركيب صبر غالب وعسل مغلوب. وأما مثال الثاني فاللون الأدكن المتكافئ في النسبة إلى طرفي البياض والسواد الحاصل عند تركيب أبيض وأسود متفاوتين. ومثال الثالث من الأقسام المذكورة فنقش الخاتم الحاصل في الطين المركب من التراب اليابس والماء السائل عند اختلاطهما فمعلوم أن النقش الحاصل في الطين ليس

بمقتضى صور البسائط لا إذا اعتبرت بحسب التركيب ولا إذا اعتبرت بحسب البسائط، ومعلوم أن القسم الأول إذا كان واقعاً بسائط متضادة الصور لا بحسب الاختلاط بل بحسب الامتزاج أن الأضداد المغلوبة لا يكون لها في ذواتها أو في تأثيراتها الخاصة بها وجود لامتناع سريان ضدين في حامل واحد معاً بل يكون غاية تأثيراتها إحلال النقص بقوة الغالب فقط. ومعلوم أن القسم الثاني مهما وجد أوجب التكافؤ والتساوي في مقتضى أفاعيل صور البسائط ومقتضى انفعالاتها.

ومعلوم أن القسم الثالث إذا وقع لم يكن حاصلاً من ذات المركب إذ ليس له لا بحسب اعتبار صورته البسيطة ولا المركبة فإذن هو مستفاد من خارج.

فواجب إذ قدمنا هذه المقدمات أن نخوض في موضوعنا فنقول أن النفس إنما حصلت في الأجرام المركبة المتضادة الصور ولا يخلو حصولها فيها من أحد الأقسام الثلاثة لكنه ليس من القسم الأول وإلا فهو حرارة أو برودة أو يبوسة أو رطوبة وقع في أيها كان نقص ما. وكيف تستعد إحدى هذه القوى أن تصدر عن نفسها الأفاعيل النفسانية مع حصول

النقص التركيبي وما كانت شغلت به حالة كمالها وقوتها بل كيف تحرك شيء منها إلا إلى جهة واحدة فقط ولماذا وجب مقتضى الممانعة مع الحركات النفسانية حتى تورث ممانعتها كلالاً إذ تأثير شيء واحد بالذات لا يقع فيها ممانعة.

ولا هو من القسم الثاني إذ وجود القسم الثاني من المستحيل وذلك أن العناصر مهما تركبت على تساوي القوي أوجب ذلك فيها بطلان جميع التأثيرات المنسوبة إلى كل واحد منهما فلم يكن داخلي عن المركب أن يتحرك لا إلى جهة العلو وإلا فالحرارة غالبة والبرودة مغلوبة ولا إلى أسفل وإلا فالبرودة مغلوبة بل ولا أن يسكن في الأجياز الأربعة. وإلا فالطبيعة الجاذبة إليها فيه وقد قيل أن جميعها متساو في الغلبة والمغلوبية وهذا خلف فإذن هذا الجسم لا ساكن ولا متحرك وكل جسم أحاط به جسم فإما ساكن وإما متحرك وهذا أيضاً خلف وما أدى إلى الخلف فهو خلف فنقيضه وهو قولنا أن ذلك ممتنع صادق. فإذن ليس على سبيل القسم الثالث وقد قيل إن ما كان على سبيل القسم

الثالث فهو من خارج. فالنفس مستفادة من خارج وذلك ما أردنا أن نبينه.

***

الغزالي: في كتابه المنقذ من الضلال

ولو قيل لواحد (من الطبيعيين): "هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء، هو مقدار حبة، يوضع في بلدة، فيأكل تلك البلدة بجملتها، ثم يأكل نفسه فلا يبقى من البلدة وما فيها، ولا يبقى هو نفسه" لقال: "هذا محال وهو من جملة الخرافات وهذه حالة النار، وينكرها من لم ير النار إذا سمعها، وأكثر عجائب الآخرة هو من هذا القبيل. فنقول للطبيعي، فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص، في مداواة القلوب وتصفيتها، ما لا يدرك بالحكمة العقلية، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل:

ب	ط	د

ز	هـ	ج
و	ا	ح

2	9	4
7	5	3
6	1	8

يكتب على خرقتين لم يصبهما الماء، وتنظر إليهما الحامل بعينها، وتضعهما تحت قدميها، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج. وقد أقروا بإمكان ذلك وأوردوه في كتاب "عجائب الخواص" وهو شكل فيه تسعة بيوت، يرقم فيها رقوم مخصوصة، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر، قراءته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب.

البعث القومي

بدأ البعث القومي في أوروبا ببعث تراث الأجداد، التراث الذي نسجته الحياة سليقة دون تدخل الأغيار. وكانت الشعوب الأوروبية قد اعتنقت المسيحية في القرون الوسطى وظلت تخضع لقوانين الكنيسة حتى مطلع القرن التاسع عشر، إذ ذاك كان فريق من هذه الشعوب وهو فريق غربي أوروبا يفصح إعلامه عن رأيهم باللغة اللاتينية لغة الكنيسة الكاثوليكية، وكان الفريق الآخر وهو شعوب شرقي أوروبا يفصح عن رأيهم باللغة اليونانية لغة الكنيسة الأرثوذكسية وأما لغة الأم فكانت مهملة وذلك كان السبب في بقاء سواد الشعب مقصراً عن المستوى الذي تتطلبه المهام العامة.

وإذ ذاك كان تاريخ اليهود المسجل في التوراة ينبوع المسيحية ومستندها كانت قصص الأنبياء تعوض عن مناقب

الأجداد وأساطيرهم. وكانت أعمال بني إسرائيل مصدر وحي الأدباء والفنانين وهل من دليل على سلطان التوراة على النفوس أبلغ من تسمية الأوروبية أولادهم بأسماء أنبياء اليهود تيمناً بهم.

ولكن لما دب الشعور القومي في أرجاء أوروبا، إثر الثورة الفرنسية، هبت الجماعات تطالب بالاستقلال والحرية. كان من جراء هذا التحول أن قام فيخته في ألمانيا يعيد إلى لغة الأجداد اعتبارها مظهراً تفوقها على غيرها من اللغات. وإذا قورنت محاضرات فيخته في هذا الصدد، مع قرار المجمع العلمي ا لألماني ببرلين، قبل جيل واحد. ذلك القرار الذي كان قد قضى بإحراق كتاب فلسفي موضوعاً في اللغة الألمانية، بحجة أن لغة البرابرة التي هي اللغة الألمانية لا تصلح للتعبير عن موضوع نبيل كالفلسفة، إذا قورن الموقفان في الجيل الواحد من نفس الأزمة أدرك القارئ مدى التحول في حياة الشعوب المعاصرة. وكان من جراء هذا التحول أن قامت طليعة الشعوب تحيي لغة الأجداد فتسجل المفردات في المعجم والقواعد في النحو، بغية إدراك ما بلغته الشعوب التي بدأت يقظتها في عهد النهضة والإصلاح.

كان الغرض الأول والأساسي من حركة البعث القومي هو تأكيد استقلال الأمة بالمصير عن كل سلطان مفروض عليها كسلطان النمسا على يوغوسلافيا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا مثلاً. ولما كانت الملوك تستعين بالكنيسة على فرض سلطانها على من يدين بدينها، كما كانت الدولة العثمانية تستخدم رجال الدين ضد الشعوب المطالب بالاستقلال كالعرب وغيرهم من الأقوام، كان المناضلون في سبيل الاستقلال يذكون روح النضال عند الجمهور بإذكائهم ذكرى أبطال الأمة ومناقب الأجداد، وكان النوابغ يؤكدون أهلية الأمة للاستقلال بإظهارهم سمو الفطرة التي فطرت عليها أمتهم في جاهليتها، قبل اعتناقها المسيحية وكان ذلك كله يستلزم الكشف عن عبقرية الأمة، عن استعداداتها وإمكانياتها من خلال وقائعها وتجلياتها في الآداب والفنون.

ولكن الحال بالنسبة إلينا كعرب يختلف عما كانت تعاني الشعوب الأوروبية في نهضتها. كان المناضلون في هذه الشعوب يستندون في نضالهم إلى استقلال عبقرية أمتهم عن وجهة نظر كل من الكنيسة والدولة المحتلة وأما نحن

فكيف نميز بين جاهليتنا والإسلام؟... بل كيف نميز في شخص محمد بطل العرب من رسول الإسلام؟ وعلى (م) اعتمد المسلمون في فتوحاتهم؟ أعلى التقوى أم على المروءة شعار التربية في الجاهلية؟.

هذا، وإذا كانت الشعوب المضطهدة قد وجدت في تراثها عاملاً مميزاً لها عن أعدائها وحافزاً لإثارة جمهورها ضد خصومها، وإن لغتنا لم تقصر عن الإفصاح عما يختلج في نفوسنا، حتى لقد كان تراثنا منارة يهتدي على شفقها الناس سواء السبيل. وإن كل ما تفتقر إليه في بعثنا هو أن نبلغ مستوى الوعي عند أجدادنا القدامى أن نبلغ مستواهم في وضوح البصيرة وفي قوة الشكيمة وكيف السبيل إلى ذلك؟.

إن لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا والتي هي مستودع لتراثنا فما لنا ألا نعود ونحياها عن وعي حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة، إن مثل كل كلمات لغتنا كمثل البذرة من النبات، يضمر فيها المعنى ضمور الحياة في البذرة، فليس للذهن إلا أن يتمثلها حتى أصبح

الخيال من استجلائه معناها بمثابة الموسم من استجلائه كوامن الحياة.

ولما كان صرح ثقافتنا، من فقه وآداب وفنون، قد شيد على المعاني المنطوية في الكلمات وكانت المعاني ذات جذور في صميم الحياة مستقلة كل الاستقلال عن خطل العقل في اجتهاد المجتهدين فقد أصبح البعث عندنا في العودة إلى الينبوع، إلى الحدس المتضمن في الكلمات كالعدالة والنظام والشعر والجمال إلخ...

والذي تدل عليه الكلمات المعبرة عن المحسوس في نفس أسرة الكلمة كدلالة ذكاء الشمس. على الذكاء. ودلالة العقل ــ الرباط على العقل، ودلالة الشارع على الشريعة إلخ.

أو ليست لغتنا على مثال الشعر تبعث المعاني حية في النفس؟ ألا تجمع كل من كلماتنا خصائص القصيدة الأساسية؟ أي المعنى والبيان الصوتي والخيال المرئي؟ تلك هي حقيقة يرجع إليها القول المأثور، (إن من البيان لسحرا). (راجع كتاب العبقرية العربية في لسانها للمؤلف).

وفضلاً عن ذلك تجمع اللغة العربي مقومات الحياة الإنسانية: الصبوة إلى المثل الأعلى، والنزعة إلى ينبوع الحياة. وإن الاختلاف بين الفصحى والعامية، خلود الأولى وخضوع الثانية لأراجيف البيئة إنما هو بيان الاختلاف بين المثل الأعلى والواقع. حتى إن الاختلاف في تراثنا بين الرحمة من الرحم والشيطان (من الشطط) يرجع إلى ذلك الاختلاف ألا تبدو الصيغ في اللغة العربية وجهات مثالية قد أدركها العقل فاستقر عليها؟ أو ليست الكلمة العربية من شقائقها الكلمات الأخرى من النفس على مثال النغم بين الأنغام في الأنظومة الواحدة توجه الكلمات بانسجام معانيها المحسوس منها والمعقول، الذهن، على موجها نحو الحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق كما تحمل الأنغام على موجها نحو الإلهام منبعثاً من أعماق الوجدان. ومتى تم بعثنا عدنا إلى سابق عهدنا هداية للناس أجمعين.

نظرة في مزايا اللسان العربي

ظل اللسان العربي محتفظاً، بفضل بنيانه الاشتقاقي، بأصوله في الطبيعة، وبمسالك نموه نحو أداة بيانية متكاملة، فالكلمة لم تزل فيه على نشأتها الأولى، صورة صوتية، تحمل طابع المعنى الذي أنشأها، وتدل عليه دلالة المبنى على المصمم، وبنيان هذا اللسان لم يزل يؤلف كلا حياً، تنسجم فيه المقومات، كالنحو والكلام والحروف والحركات، انسجام الأنسجة في البدن.

ولما كانت الحياة نفسها قد اشتركت مع الأفراد في إنشاء هذه الأداة من البيان، فقد جاءت المفاهيم المنطوية في كلماته، حدساً صادقاً في طبيعة الأشياء، وهكذا تكمن المفاهيم، أصول مؤسساتنا، في كلماتنا، كمون الحياة في بذور النبات ــ وإذا كانت الطبيعة تستجلي نوع الحياة الكامنة في البذرة، فكذلك الفرد يستجلي، بخياله،

تجربة الحياة المتبلورة حدساً في الكلمة. مثل الكلمة العربية من معناها، كمثل النغم من إلهامه في الأنشودة، يبعث النغم بنزعته التي يشترك فيها من شقائقه الأنغام الأخرى، الإلهام مصدر وجود الأنشودة، وتحول الكلمة العربية الحدس، مبدأ الاشتقاق، من حالة إبهام إلى وضوح تام إن انسجمت هي وشقائقها ووجهت المعاني المشتركة فيما بينها، توجيهاً متقارباً في الوجدان، وعندئذ تصبح في أسرتها بمثابة مصباح في ثريا، يزداد وضوحها ويتلون معناها.

إن اللسان العربي، إذا درس دراسة توليدية Genetique هدانا إلى استجلاء آية الأمة التي أنشأته تعبيراً عن ذاتها، فأودعت فيه تجاربها ورسمت بمنحنياته سماتها، حتى أصبح منها كالجسد من النفس، وهدانا أيضاً إلى إنشاء ثقافة إنسانية نامية أصولها في الطبيعة ورائدها الملأ الأعلى.

هذا فضل عن أن دراسة لساننا، تكشف لنا عن نهج الحياة في إيجادها أداة بيانها، فتساعد على حل المشكلة التي استعصى على العقل حلها، ألا وهي مشكلة اللسان ذاتها.

وهل تقف دراسة هذا اللسان البديء والبدائي عند الفوائد المتقدم ذكرها؟ إنها سوف توضح العلاقة بين اللغات السامية واللغات الهندسية ـ الأوروبية، على اعتبار أن اللسان العربي كلمات أنشئت نشأة طبيعية، أنشئت من أصوات مصطفاة من بين بوادر الشعور الطبيعية.

حتى أن هذه الدراسة، سوف تبين لنا حدود العلاقة بين المعنى والصورة، وسوف تهدينا إلى الأسباب التي تجعل الكلمة العربية صورة حية، تفيض على المفاهيم الكامنة فيها بياناً صوتياً مرئياً، يكسبها حلة من الشعر.

ولما كان اللسان العربي مؤلفاً من كلمات ذات بنية عضوية فقد كون انسجام مقوماته مصاعد يرتقي عليها الذهن نحو المفاهيم في مصادرها، وقد أصبح متكلموه متصفين بطابع رحماني، يمتازون به عن سواهم من الأقوام بالميل إلى الأخلاق والفن.

***

نشأة اللسان العربي

كيف ظلت مزايا اللسان العربي مجهولة حتى اليوم، أيرجع السباب في ذلك إلى الاختلاف بالعبقرية، بيننا وبين الذين أولوا عنايتهم دراسة لساننا؟ أم يرجع السبب إلى أن أعلام اللغة وجلهم من الأعاجم، قد أدركوا بنيان كلامنا من خلال عقليتهم، فدونوا قواعده على مثال قواعد لغتهم؟..

ومهما يكن السبب في ذلك، فإن دراسة لساننا يظهر فيها التقصير، ولاسيما في تنظيم ـ معاجمنا، حيث ظلت الرابطة الاشتقاقية على حدود العلاقة بين الفعل ومشتقاته الاسمية والفعلية، بينما هذه العلاقة تشمل جميع الأفعال التي ترجع إلى صورة صوتية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة. فعلاقة فعل "خرق" مثلاً تقتصر في المعجم على الكلمات التالية: الخارق (ما يخرق العادة، والمخراق، والمخرقة: "المثقبة" والمخارق: "المنافذ" في حين أن العلاقة المذكورة

تشمل الأفعال التي ترجع إلى أرومة (خرير الماء) الصورة الصوتية المرئية الأولى، أي أنها تشمل الأفعال التي تشترك في خيال تأثير الماء في مجراه، خرب خربا، خرج خروجاً، خرد خرداً، حزم حزماً، خرز خرزاً.

وهناك مثالاً آخر نريد به من وضوح وجهة النظر المتقدمة، فقّ الماء فقفق، وهو الصوت المقتبس من غليان الماء. إن هذا الصوت قد كان مبدأ اشتقاق الأفعال التالية: فقأ الدملة، فقح الكلب عينيه، فقص النقف من البيضة، فقه العالم الحقيقة، فقر، فقع... هذه الأفعال هي ومشتقاتها الفعلية والاسمية تنطوي على خيال الفقاقيع المتفتحة عن داخلها.

وهنالك أمثلة من نوع آخر، غ ير أن الأصوات في هذه المرة مقتبسة من عبارة الهيجان الطبيعية، كصوت "ء ن" و"آخ"، مثلاً فقد صنع الذهن العربي من صوت "ء ن" فعل "أن" انينا، ومنه أيضاً قد صنع ضمائر المتكلم والمخاطب نحو: أنا، أنت، أنتما، أنتم، أنتن. وربما كانت عبارة الهيجان منشأ اللسان وأصول البيان فيه.

وقد استفاد الذهن العربي من الأصوات والحركات التي تحصل معاً في الضم أيضاً نحو: بتّ، وقصّ، وقدّ، وقضَّ... فعبر بها وبمشتقاتها عن تلونات الحدس الحاصل عند حدوث الحركة ونحن على سبيل المثال، نسوق هنا بعض أسر الكلمات العربية مظهرين بها فسحة الخيال العربي ودقة ملاحظته.

1 ـ قطّ، القط، القطب، القطوب، قطر، القاطرة، القنطرة، قطع، المقطع، قطف، القطيفة، المقطف، قطل، قطم، المقطم، القطمر، قطن، قطاء القطاة.

2 ـ قد، القد، القديد، القدح، القدر، القادوس، القداف، القدم، القدوم، القدموس.

3 ـ بت، البات، الباتر، الأبتر، الأبتع، الباتك، البتول، البتار، تبتل، بطر، الأبطر.

ولنأخذ إحدى كلمات القاموس، كيفما اتفق، ولتكن هذه الكلمة (خجل). نجد الكلمات التي تجتمع في هذه الأسرة هي: الخجل، الحياء، خجل البعير بالحمل، ثقل عليه، خجله وأخجله: جعله يخجل.: ونحن إذا ما تتبعنا الكلمات التي تشترك في صوت: خجّ، الذي هو مصدر

الاشتقاق، نجد هذه الكلمات تنطوي على خيال النشأة: خج. خج، خج الجمل برجله: شف بها التراب بمعنى مشى مشية غير لائقة، ومنها خج، الجمل أسرع مع التواء وخجأ الليل: مال، تجأجأ: تباطأ، الخُجأة: الأحمق Gaucherie. خجى التراب برجله نسفه.

ولنأخذ كلمة أخرى من القاموس ولتكن هذه المرة كلمة "عشق" تقف العلاقة الاشتقاقية عند حدود الأفعال والأسماء المشتقة من فعل "عشق" ومنها العشق: إفراط في الحب، العشقة: نبات يلتوي على الشجرة ويلزمها، العشيق، العشاق.. إلخ. ونحن نجد لدى التأمل، خيالاً مشتركاً بين الكلمات أمثال عش الطائر لزم عشه، عش الكلأ يبس العش: موضع الطائر، ومنها عاشره، خالطه وصاحبه، والعشرة والعشراء، والمعشر، ومنها عشم الشيء: يبس والعشمة الخبزة اليابسة، والأعشم، الشجر اليابس. والأصل هو صوت "رش" الصوت الذي يحدثه الطائر عند دخوله بين الأوراق اليابسة...

وعلى هذا، فالكلمة العربية ليست إذن، رمزاً يلتصق به المعنى عرضاً واتفاقاً، كما هي الحالة في تعريف الكلمة

في اللغات الأوروبية، بل إنها صورة تتألف من صوت وخيال مرئي ومعنى هو قوام تآلفهما. ويؤخذ مما تقدم أن العبقرية العربية قد استندت، في إنشاء أداة بيانها إلى المداد Rythme المنطوي في الصورة الذهنية وإلى تعديل مظاهر الحياة المختلفة بالصوت الذي هو طوع إرادتها، وبالرؤية التي هي ذات تلون ودقة وهل يختلف منهج العبقرية العربية هذا على نهج الحياة، إذ هي تعدل حركة الفم العضلية بالصوت، وبالصوت بالرؤية، منتقلة بهذا التعديل إلى مداد آخذ بالدقة، مداد نقتصد به الجهد اللازم لإنشاء درجات صعودها نحو إنسانية متكاملة.

إن اللسان العربي، بمبدئه "المعنى" وتجلياته "الأصوات" على غرار البدن، شجرة سحرية نامية أبداً، جذورها في الملاء الأعلى وتجلياتها في الطبيعة.

***

نمو اللسان العربي

يتم نمو اللسان بتأثير متبادل بين الفكرة وعبارتها، هذه تستجلي معناها وتثبته فتصبح منه بمثابة الجسد من النفس، وتلك توحي باصطفاء الكلمة من بين العبارات الممكنة. مثل المعنى من صورته البيانية التي هي الكلمة من اللسان العربي كمثل الإلهام من التحفة الفنية.

وأما المصادر الصوتية، التي منها صاغ الذهن العربي كلماته فهي(1) أوات الهيجان الطبيعية (2) الأصوات التي تحصل في الفم (3) الأصوات المحدثة في الطبيعة.

1 ـ بدأ الذهن العربي يصوغ الكلمات من عبارات الهيجان الصوتية، فمن عبارة "آخ" مثلاً، صاغ "الأخ" والأخوة، والأخاء. ومن صوت (تف، تف) صاغ التفة، المرأة الحقيرة، وتفل، والمتفلة، وتفه الشيء: قلّ وخسّ، والتفاهة.

ومن عبارة (نف) صاغ نف السويق، سفة، نفثت الحية السم، النافث: الساحر، نفحت الريح، هاجت وجاءت بشدة. نفح الطيب: انتشرت رائحته، نفخ، نفذ الشيء: فنى، نفذ خرق. نفر، النفس النافلة. نفِهت نفسه. كلت واعيت. ومن صوت (ن) صاغ الضمائر: أنا، أنت، أنتما أنتم وصاغ منها أيضاً: الأنين، والحنين، هي ومشتقاتها الاسمية والفعلية. وربما كانت عبارة الهيجان التي هي الأصل في إيجاد اللغة، لأن الإنسان يشترك مع الأحياء العالية في اللغة الطبيعية.

وقد صاغ الذهن العربي من الأصوات التي تحصل في الفم مجموعة عظيمة من الكلمات، فمن صوت (بتَّ) الذي يحصل من تقاطع اللسان مع النطع، والذي يوحي، بحسب طريقة حدوثه معنى القطع الكلمات التالية: بت، البات، الباتر، الأبتر، الأبتع، الباتك، البتول... إلخ. ومن صوت قط: القِط، القطب، القطوب قطر، القاطرة، قطع، المقطع، قطف، المقطف، قطل قطم، قطا، القطاة. ومن صوت قد: القد القديد، القدح، القدر، القادوس، القدم، القدوم، القدموس، إلخ. ومن قص القصاص، المقص، القصة،

قصبه، قطعة، قصد، القصد، القصر، المقصورة، قص الشيء: قطعه، قصم الشيء: كسرة.. إلخ.

وقد صاغ الذهن العربي من الأصوات التي تحدث في الطبيعة الكلمات الآتية:

فمن صوت (تر الماء ترتر) أي من صوت سقوط الماء متقطعاً صاغ الكلمات: تر العظم، انقطع وسقط، والترى من الأيدي: المقطوعة، والمتراح من النوق التي يسرع انقطاع لبنها.

ومن صوت خرير الماء صاغ الذهن العربي: خرب، خرج، خرد، خرم، خرق.. إلخ.

كلمات توحي بتأثير الماء في مجراه: خربا، خروجا، خردا، خرما، خرقا.. إلخ.

ومن صوت فق الماء فقفق وهو الصوت الذي يحصل من غليان الماء، صاغ الذهن العربي الكلمات: فقأ الدملة وفقح الكلب عينيه، فقص النقِفُ من البيضة، فقد، فقه، ... إلخ.

ولدى التأمل في الأمثلة المتقدمة يبدو أن الذهن العربي قد سلك طريقين في صوغ الكلمات من الأصوات: الإلحاق

والتحويل. فقد صاغ هذا الذهن من صوت (زم) الذي هو الصوت الزنبور والمتضمن معنى الشدة الكلمات: زم، الزمام، زمت، ومح، زمخر، زمن، الزمر، زمزم، الأزمع أزماك، الزمانة، إلخ... وكان ذلك بإلحاق حرف ملائم لطبيعة المعنى المقصود إلى صوت (زم).

وقد اشتق الذهن المذكور بتحويل الحرف الأول إلى شقيقه بالمخرج (ض) الكلمات: ضم، ضمر، ضمد الجرح، شده بالضماد، ضِمد: اشتد غضبه. الضمادة. ضمر. على ماله: شح. ضمضم الأسد: زأر. ضمن الرجل: أصابه مرض يلازمه ويشتد عليه وقتاً بعد وقت فهو ضمن.

وهاك أمثلة أخرى نهج الذهن العربي في صوغها الإلحاق والتحويل: فمن صوت (ن): أن، الإناء، أنس، الإنسان، الأنام، الأناة. ومن أن أيضاً: حنّ وحرف هاء، شقيق الهمزة في المخرج: الحنين والحنان، وحنث، وحنش، وحنط، وحنف، وحنك، وهنا، ومن صوت (عن) والحرف (ع) شقيق الهمزة بالمخرج صاغ العنين، العنان، عنت، العنوت، عِنت الجارية، عنف، عناله، عاني، معاناة.. إلخ.

ومن صوت (بت) وبإلحاق أحد الحروف اشتق: البات، الباتر، ومنها أيضاً وبتحويل حرف تاء إلى شقيقه بالمخرج "دال" اشتق: بدّد، البدء، المبدأ، البدئي، بدر، البادرة، بدع، البدعة، البديع، بدن، بده، بداهة، ومن تحويل حرف "تاء" إلى شقيقه بالمخرج "ط" بطر، البطر، بطر، البطل.. إلخ. ومن تحويل حرف "دال" إلى شقيقه بالمخرج "ط" بطرن البطر، بطر، البطل.. إلخ. ومن تحويل حرف "دال" إلى شقيقه بالمخرج "ض" اشتق الكلمات: بض، بضع، البيضة، البياض.

ومن تحويل حرف "تاء" في تر الماء إلى شقيق التاء بالمخرج "دال" اشتق: در الحليب، ومن تحويل "دال" إلى ذال، اشتق: ذرّ الذرة. ومن تحويل حرف "دال" إلى شقيقه بالمخرج، "ض" اشتق، ضرّ، تعبيراً عن معنى مضاد لـ"ترّ"، ضر ضرع البقر: جف وانقطع عن الدر...

أليس من غريب الأمر أن يفطن اللغويون لمبدأ (الإلحاق) في استخراج الأفعال تبعاً لقواعد معينة وأن يقصروا عن إدراك شمول هذا المبدأ؟ كلنا نمارس الاشتقاق فنشتق مثلاً أكرم من كرم، واستخرج من خرج، وانقطع من قطع،

وكسَّر من كسر.. إلخ. ولو أمعن النظر في بنية اللسان لظهر تكوينه من أصوات طبيعية وفق قواعد الاقتران والمشابهة والتضاد في ت أثير صورة ذهنية على دعوة صورة ذهنية أخرى وهنا نورد بعض الأمثلة التي تدل على تأثير قواعد التداعي المذكورة في تكوين لساننا.

صوت "أجّ" هو صوت ذكر الحمام حين يحوم حول أنثاه. والأجيج هو اختلاط الكلام. ونجد في أسرة كلمات "أجّ" بمعنى اضطرم وتلهبّ، وأجّ الماء: صار أجاجا: ملحاً مُرّاً وكيف كان ذلك التناقض؟ أفي نفس الأسرة لهيب النار والماء المالح؟ والسبب في ذلك هو أن ذكر الحمام يحمي وينفش ريشه حين يحوم حول الأنثى. فمن شكل الريش انتقل الذهن بالمشابهة إلى البحر، ومن البحر، وباقتران إلى ماء البحر المالح. وهنا يلتقي الذوق العربي مع بعض الشعراء الذين يرددون الشبه بين الطاووس والبحر ومن حرارة الحمام انتقل الذهن إلى لهيب النار. وكلمة حمام، نفسها مشتقة من الحماوة. وصوت "قرقر" هو صوت دويبة مستطيلة تعيش في موسم الشتاء في الأنهار اسمها (قِرقُريُرْ). لدى التأمل في الكلمات المشتقة مباشرة من هذا الصوت نجد أولاً

الكلمات في اتجاه الصوت نفسه: قرت الحية: صوتت. القرة: الضفدع. قر الكلام في أذنيه: وضع فاه على أذنه فأسمعه. أقر بالحق أذعن واعترف به. وقرأ.. إلخ. وفي اتجاه موسم الشتاء: قر اليوم: برد. القر: البرق. القرور: الماء البارد. يوم قار: يوم بارد. وفي اتجاه قاع النهر: قر في المكان: ثبت. القرار والاستقرار إلخ...

وأما مبدأ التضاد فهو مألوف في اللسان العربي: وعلى سبيل المثال نورد بعض الكلمات: ضر ضرع البقرة مضاد "درَّ" ضرع البقرة. وعدم مضاد لـ"عد" أي حسب له حساباً، أو قدر له قيمة وخريد المشتقة من "خرد" تفيد المعنى المضاد لمصدر الاشتقاق... إلخ.

هناك نمط آخر في إبداع الكلمات العربية إلا وهو النحت. وفي النحت تبرز العبقرية المبدعة للفنان الشاعر. وإليك بعضاً من الأمثلة. تفاح: منحوتة من "تف" و"فاح" فتوحي بالفاكهة التي تجعل اللعاب ذات رائحة ذكية. وعصفور: منحوتة من "عصف" و"فر". وسلحفاة: من "سل" و"لحف" توحي بزاحفة تسل وهي ملتحفة بقوقعتها. وضفدع: منحوتة من "ضفة" النهر، ومن "دعا" توحي بإحياء تجتمع حول أطراف

الأنهـار فيـدعو بعـضها بعـضاً. وقـشعم: مـن "قـش" و"عـم" وزمهريـر: مـن "زم" و"هـر" وزمجـر مـن زم وزجـر (أكثـر الصياح). وقنفد من "قن" و"نفد" توحي بالشوك. برغش: من "بـر" و"غـش" تـوحي بحـشرات تعـيش في البريـة فتغـشى علـى الأشـياء. بـرعم: مـن "بـر" و"عـم" مـا يعـم البريـة. غرنيـق: "غـر" و"أنيق" عبقري: عبق وقر. على مثال الزهرة التي تنشر العطر بصورة دائماً. الزبرج: زبر "برج". كتابة بارزة.

ومع خضوع الذهن لقواعد الاقتران والمشابهة والتضاد في صـوغ الكلمـات مـن أصـوات طبيعيـة يبقـى الحـدس المتضمن في مصدر الاشتقاق ملقياً طابعه على الكلمات المشتقة من هذا المصدر. حتى إذا ما تم استقطاب تجليات الحـدس المـذكورة في الكلمـات في وحـدة إدراك ارتقـى الذهن إلى بصيرة في صميم الحياة.

***

البيان الصوتي في اللسان العربي

إن البيان لا تخلو منه لغة من اللغات؛ إلا أنه يبقى على حدود العبارة في اللغات الحديثة بينما هو يشمل العبارة والكلمة والحرف والحركات في اللسان العربي. ففي اللغة الفرنسية مثلاً يقتصر البيان على الأسلوب أي أن العبارة في تطورها توحي بالفكرة كما أن الفكرة في تموجها تؤديها العبارة في حركتها. ولكن اللسان العربي يفيض بالحياة في جملته وفي أجزائه، فإنه على مثال الإحياء نفسها.

يتساءل المرء إلى ما يرجع الاختلاف في البيان بين اللسان العربي وبين اللغات الأخرى؟ إلى بدائية لساننا، إلى جذور كلامنا في الأصوات الطبيعية، إلى أصالة العلاقة بين الكلمة ومضمونها وبتعبير آخر إلى العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية والمعنى. لقد بينا في حديث سابق أن للكلمات العربية ثلاثة مصادر أساسية أولها الأصوات التي

تعبر عن المشاعر عبارة طبيعية وثانيهما أن الأصوات التي تحصل في الفم صداها في النفس، هو معناها، وثالثهما الأصوات المقتبسة عن الطبيعة الخارجية.

فأما الأصوات المعبرة عن الهيجان فتقوم على علاقة فطرية بين الشعور واللفظة كبادرة من بين بوادر الهيجان الأخرى وحكمة وجود هذه العلاقة بين الصوت والمعنى هي المشاركة الوجدانية بين أعضاء مجتمع تربط بينهم الرابطة الرحمانية، ولفظة "آخ" التي هي للتوجع تدعو الأقارب لترديد الصوت قائلين: "آخ" ومن هنا كان اشتقاق الكلمات: أخ، وإخاء، وأخوة. وصوت آخ، كعبارة للهيجان يشبه صوت الدجاجة "قِرْق، قِرْق" الصوت الذي تدعو به الدجاجة فراخها. والفراخ يميزون في الصوت بين إنذار بوجود باشق في الأفق، وبين حبات من الحنطة يلتقطونها عن الأرض.

وأما الأصوات المستحدثة في الفم كصوت: بت، وقض، وقط، فصدى حدوثها في النفس هو معناها. وهنا أيضاً العلاقة بين الصوت والمعنى علاقة طبيعية. وجميع الحروف والحركات في اللسان العربي ترجع إلى العلاقة بين

الصوت وبين طريقة حدوثه في الفم. هذا فضلاً عن مصادر صوتية لا تحصى ترجع إلى نفس العلاقة كما بينا ذلك.

وأما الأصوات المحدثة في الطبيعة الخارجية، فإن صوغها في كلمات ذات معنى يحمل طابعاً إنسانياً، مما يكسبها هي أيضاً قدرة إيحائية. فمن المعلوم أن البنيان الاشتقاقي أصل في اللسان العربي وعندما نشتق من خرج مثلاً استخرج بإضافة حرفي "س" و"تا" نكون قد حملنا عبارة إنسانية للصوت الطبيعي الذي هو هنا صوت خرير الماء.

وها نحن نقدم هنا أمثلة عن البيان في الحروف والحركات، الكلمات والقواعد:

البيان في الحركات والحروف

في الكلمة العربية، تحتفظ الحركة بمدادها الأصيل، فتعبر بذلك عن معناها البدئ، فالفتحة الحاصظ بحسب مخرجها عن ركون اللسان عند صدور الصوت تعبر عن الركون والاندراج، والكسرة الحاصلة عن صدور الصوت بكسر الشفتين ورجعتهما، تعبر أيضاً عن النسبة أو

عودة الحالة إلى الذات وكذلك الضمة الحاصلة من تدافع الصوت عند خروجه، تعبر عن الفعالية المتواصلة والدائمة.

ففي الأعراب، أو وظيفة الكلمة في الجملة، مثلاً، يبدو بيان الحركات بصورة مضطردة، فالفعل المضارع ذو الفعالية المتواصلة (حاضر ينزع إلى المستقبل) يعرب مبدئياً بالضمة وهي عبارته الطبيعية، وكذلك الفاعل يعرب أيضاً بالضمة، بينما نرى المفعول، لكي يحتمل فعل الفاعل، يعرب بالفتح، وكذلك الفعل الماضي يدخل في الركون بأعراض الوجدان عنه، فيبنى على الفتح بياناً لذلك.

أما الأمر والنهي، فإنهما، بحسب طبيعة مفهومهما، يجزمان، ويعبر عن التوكيد بالشدة، ليكون هناك تلازم بين العبارة والمعنى المقصود بيانه، ويعبر عن المجرور أيضاً بالكسر تحقيقاً للنسبة. وتحتفظ الحركة ببيانها في بيان الكلمة أيضاً، إن لم تعترها ضرورة صوتية، فصيغ الفعل الثلاثي، كما أوضحنا ذلك في مبحث "المشتقات الفعلية" في كتابنا (العبقرية العربية في لسانها)، حاصلة بالنسبة إلى حركة الحرف الثاني منه، كذلك نجد هذه القاعدة على الأغلب، في أسماء المصادر والأسماء.

ولما كانت حروف العلة، بحسب شكلها وكيفية تكوينها تفخيماً للحركات المقابلة لها أي أن الواو تفخيم للضمة والياء تفخيم للكسرة والألف تفخيم للفتحة، فهي تعبر عن المعنى بصورة مفخمة: فهم فهيم، نبه نبيه.

ويتمتع الحرف العربي أيضاً بقيمة بيانية، وإن تحددت هذه القيمة بمنظومة الكلمة الصوتية إلا أن بعض الحروف يقوم في هذه المنظومة بمثابة نبرة الإيقاع في تعيين بيان معنى الكلمة، ويفي الحرف الأول من الكلمة على الأغلب بهذه الوظيفة. أن حرف "غ" هو أبلغ بياناً من كافة الحروف الأخرى، فبحسب مخرجه وما يلقى من صدى في النفس عند خروجه، يعبر عن معنى هو الغيبوبة والغموض ومن هذه الكلمات "غب هو الغامض من الأرض". و"غبر مضى، وغبش الليل: أظلم، وغبط النبات: تدانى وغطى الأرض، غبن وغباشة، وغبى الغبوة، الغفلة، وغرب النجم، وهكذا غرر وغرس وغرق وغطى وغاص وغمد وغمر.. إلخ".

البيان في القواعد

بالجمع تبرز خصائص المفرد، فيجمع المذكر السالم تحويل التنوين إلى (واو ونون) بالرفع وإلى (ياء ونون) بالجر:

مؤمن، مؤمنون، مؤمنين. وفي المؤنث السالم ت تحول التاء المربوطة إلى تاء طويلة، ويتبع هذا التبدل تعديل بحركة الفتحة المناسبة للحركة المتقدمة على التاء (ألف) فتصير: مؤمنة مؤمنات.

وفي صيغة المجهول تنتقل حركة الفاعل إلى الحرف الأول من الفعل، بياناً لتحمله فعل الفاعل ويكسر الحرف الثاني، علامة للنسبة في الماضي، وأما في المضارع فتفتح هذه الحركة، دلالة على عدم استكمال فعل الفاعل.

وفي التصغير يضم أيضاً الحرف الأول، بياناً للفاعلية، ويلزم الحرف الثاني الفتح مع إضافة (ياء) فيولد في الذهن خيال القسر والتقاعس عما بدا: نهر، نُهيَّر، رجل، رُجَيْل، كلب، كليب، إلخ...

وأما في النسبة فإن الياء الملحقة بالاسم هي علامتها الطبيعية، دمشق، دمشقي، عقل، عقلي، وإذا كانت الياء في صلب الكلمة تفيد استقرار الصفة: نجيب، نبيل، سليم إلخ...

هكذا يصطفي المعنى الصورة المحققة له من بين البوادر البدائية التي هي أكثر صلاحاً لوجهة نظر الإنسان

في الوجود فيتخذ الأصوات المرافقة لهذه البوادر والمنطوية على مداد مشترك معها، فيصنع منها الكلمات، وهذه تصبح بدناً له، ولما كانت الحياة تنمو بتجاوب بين المعنى وتجلياته، بين الملأ الأعلى والطبيعة، فالصورة التي تتجلى بها هذه الطبيعة للإنسان هي على الخصوص مرئية، مما أدى إلى تفرغ الصور الصوتية ونموها بتداعيها مع الصور المرئية، فالكلمة تحتفظ ببيانها بنسبة ما تشترك هذه الصور الصوتية المرئية بالمداد الأصيل، مداد البوادر التي ـ اختارتها الحياة بدنا لها ـ (من كتابنا العبقرية العربية في لسانها).

البيان المرئي

جرت العادة على توزيع الكلمات في المعجم على أسر، فمثلاً الكلمات: عقل عقلاً البعير: اعوجت قوائمه فهو اعقل، عاقله: غالبه في العقل، فعليه، تعقل الغلام، تكلف العقل، اعتقثل الرمح، وضعه بين ركابه وساقه. اعتقل لسانه: حبس عن الكلام. العقل. العقلي. العُقْلة القيد، العقال: العاقل. العقيلة من النساء: الكريمة.

المعقل: الملجأ. المعقول. تجمع الكلمات المتقدم ذكرها تحت فعل: عقل. والكلمات التالية تجمع تحت فعل شرع: اشترع الشريعة: سنها. الشرع: ما شرع الله لعباده. الشرع: المثل. الشريعة: الطريقة إلى الشريعة، السنة. الشارع: الطريق النافذ. الشراع: الشرعي. خيل للباحثين في هذا المجال أن الرابطة بين كل من الكلمات ومعناها في اللسان العربي على مثال العلاقة بين الكلمة ومعناها في اللغات الأخرى،

فليست الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات في الأسرة الواحدة إلا رابطة عرضية تمت نتيجة ظروف طارئة. وما دام العرف يحدد العلاقة بين الكلمة ومعناها فكيف لا يهمل الحدس الذي هو المعنى المشترك للأسرة الكلمات المشتقة من ذات الفعل كاشتقاق الكلمات السابق ذكرها من فعلي: عقل وشرع. فمن هنا كانت المحاولة في حرية التصرف في صوغ الكلمات العربية على غرار صوغ الكلمات الأجنبية. ومن هنا أيضاً كان تمرد الذوق العربي على الطريقة المستعارة عن لغات غيرنا من الأقوام في صوغ كلامنا. لقد فات الأعاجم ومن اتبعهم من المغفلين من العرب أن اللسان العربي ذو بنية خاصة، تشترك ثلاث عناصر في تحديد معاني كلماته هي: الصوت والخيال المرئي والحدس الذي يؤلف بين الصوت والخيال المرئي. ففي تحديد معنى كلمة "ذكاء" مثلاً يتضافر الصوت "ذك" وخيال اللمعة التي تحصل من الاحتكاك والدلك، وحدس الضوء والإشراق في الطبيعة والنفس. ومنها: ذكت النار: اشتد لهيبها. ذكى النار: أوقدها. الذكاء، حدة الفؤاد، ذكاء اسم علم للشمس.

وإليك بعضاً من الأمثلة نوضح بها وجهة النظر المتقدمة. فكلمة "أرملة" تبعث بخيال الرمل الذي كانت المرأة تطلي به وجهها عندما كانت تشيع جثمان زوجها إلى القبر. وكلمة "كنة" تبعث بخيال الكن أي الوشاح الذي تتشح به العروس وهي في طريقها إلى خلوة العرس. وكلمة "صهر" توحي بخيال الانصهار في بوتقة الأسرة. وكلمة "حمو" توحي بخيال الحماية. وكلمة "جد" توحي بخيال الجهود التي أنفقها في تشييد صرح الأسرة. وكلمة "عم" تعيد إلى الذهن العادة القديمة عند العرب التي كان بموجبها يتوج أي يعمم من العمامة في كل من أبناء العشيرة وقت بلوغه سن الشباب فيصبح عما لأبناء العشيرة. وكلمة "خال" توحي بخيال تخلي المرأة عن علاقتها بأهلها والتصاقها بأسرة زوجها، هي وأولادها. وكلمة "ابن" توحي بخيال البناء.

وهاك مجموعة أخرى من الكلمات كأمثلة عن اشتراك الخيال المرئي في تعيين معنى الكلمة العربية فكلمة "ذَنْب" وصورتها الحسية "ذَنَب" توحي بأن الإثم يلاحق مقترفه وهو منه بمثابة الذنب من الحيوان. وكلمة "ثواب" وصورتها الحسية الثوب، توحي بأن العمل يلبس

صاحبه أي يشترك في تكوين شخصيته، فإذا كان نبيلاً تجمل به صاحبه وإلا خس وتدنى. وكلمتا "جزاء وقصاص" تتضمنان معنى القطع فتفيدان معنى التطاول والاعتداء وإعادة الحالة إلى ما كانت عليه من قبل. وكلمة "جريمة" تتضمن خيال الجر. جر المجرم آثامه. وكلمة "عدالة" وصورتها الحسية عدلى الفرس توحي بخيال النظام. ومن هنا كان شعار العدالة الميزان.

هكذا يتحدد معنى الكلمة بمنظومة معاني شقائقها في الأسرة وهكذا يبعث خيال نشأة الكلمة عندما تنتظم بين شقائقها الصورة الحسية والمدلولات المجردة. مثل الكلمة العربية بذلك كمثل النغم في الأنشودة.

تلك هي الكلمة العربية ذات فردية خاصة تتميز بها عن سواها وهي بذلك على مثال الأحياء نفسها. لقد التبست هذه الحقيقة على الكثيرين من الدخلاء على اللسان العربي وخاصة على الأجانب منهم، كما تلتبس على عشيرة نورية الكؤوس المختصة بأنواع المشروبات المختلفة في قصر خان الدهر أهله فاحتلته هذه العشيرة، وكما يبدو للعامي الاختلاف في وظائف المقصات المستعملة في الجراحة طامساً.

ولئن كانت المدنية الحديثة تجيب على تنوع الأعمال باختراع الآلات المختصة لأداء عملها، فكذلك الذهن العربي تحقيقاً لنزعته إلى الإبداع وتحرراً من العطالة المستحكمة بالاسم المألوف، يحدد صفات المسمى بمشتقات هي أشبه بصور شعرية، عمت عنها بصائر الدخلاء فتلقوها مترادفات.

وهاك بعض الأمثلة إيضاحاً لما تقدم:

1ـ الأسد: من سادة سيادة، فمن سد، بمعنى أغلق حماه على الغير، ومنها السيد وهو الذي يحمي العشيرة ومنها الأسود الذي يقصر عن حماية حقيقته فيصطبغ بلون الحقد والحقارة. والليث، من القوة والشدة. الزابر: من أزبر الرجل: عظم جسمه، أزبر الكلب نفش وتهيأ للشر، الأزبر: العظيم الهيكل. غضنفر من غضن ونفر، فيفيد الأول الثنى والتشنج ويفيد الثاني النفور، والهزبر: الشديد الصلب. والهيثم: من هثم: دق وسحق. والأصبح: بالنسبة إلى طلعته الوضيء الوجه. ورد بالنسبة على لونه. ضرغام من أضر وأرغم:وهي من الشجاعة والقوة. السبع: هو المفترس من الحيوان.

2ـ الفرس: فرس: من فر بمعنى طار أي: سريع العدو. حصان من حصن، فكان صاحبه يتحصن به من الأعداء ـ جواد: كريم بمعنى أنه يقدم على الخطر ويبذل نفسه في الإقدام. المزكى: النجيب من الخيل. السابح: بالنسبة إلى شكل حركته، السريع في الركض ضامر: بالنسبة إلى تبيان جسمه. أجرد: بالنسبة إلى شعره. أقب: بالنسبة إلى قوامه الأقب: المرتفع، كميت بالنسبة إلى لونه.

3ـ قسام: من قسم. فيصل: من فصل. قاطع من قطع. ماض. سريع القطع. صقيل: من صقل. باتر وبتآر من بتر بمعنى قطع بشدة. أبيض: بالنسبة إلى لونه. ذكر: بالنسبة إلى صلابته وفعله.

إن الكلمات لم تطمس صورها الشعرية على الأعاجم، فبدت مترادفات، بانقطاع صلتها بالطبيعة فحسب، بل إن العادة أيضاً قد أفقدتها رونقها فباتت باهتة في نظر أبناء الأمة أنفسهم.

***

المنظومة الصوتية

نتناول بالبحث في هذا الفصل قوام اللسان العربي من حيث هو لسان أي من جهة تفنن أصواته ودقتها أولاً، وانسجام منظومة تراكيبها ثانياً.

1ـ فلما كان الهواء يخرج من الحنجرة متموجاً فإن كل موجة تحدث بوقفتها حرفاً بنائياً، وبانتقالها بين وقفتين، حرفاً صوتياً، ومن تركيبها لحناً (مقطعاً). وما الكلمة إلا منظومة ألحان يجيب بها الذهن في وحدة من الزمن على إلهام فكرتها. ويختلف مداد الكلمة عن الحركة بتفرعه متزناً كتموج الحياة في نمو الكائن.

2ـ إن توزيع الحروف العربية على مجموعات، يحسب مخرج حدوثها لمن الأمور المؤلفة ونحن نعيد ذلك هنا حسبما ورد في كتب اللغة:

الحروف الشفوية: و، م، ف، ب، والحروف اللثوية: ظ؛ ذ، ث، والحروف الأسلية: ص، س، ز، والحروف الذلقية: ن، ل، ر، والحروف النجرية: ض، ش، ح، والحروف القطعية: ط، د، ت، والحروف اللهوية: ك، ق، والحروف الحلقية: ه، ع، غ، ح، خ، أ، والحروف اللينة: ي، و، ا، كل هذا يكشف عن الدقة في تكونها، وتطورها بالتدريج بالإضافة على غنى نشأتها.

وتبدو الدقة والتلون على الخصوص في حروف اللين، إذ أنها تتموج بين كافة الأنغام من إنشائية إلى صوتية مفخمة، فإلى حركات مخففة، حتى أنها تكاد تنتهي في الشدة والجزم بالسكون، وذلك بياناً لتجليات المعنى المختلفة.

نوضح وجهة النظر المتقدمة بما يلي:

صوت، تر، ترتر، الذي هو صوت سقوط الماء مقتطعاً تحول إلى "ثر" تعبيراً عن معنى الكثرة، ثرت السحابة (غزر ماؤها). شاة ثرة أي واسعة الأصليل غزيرة اللبن. وصوت "ثر، تحول في اتجاه آخر إلى "در" در الحليب، ناقة درارة، الدُرة. وصوت "تر" المتقدم الذكر أدى في اتجاه آخر إلى "ضرّ"

تعبيراً عن معنى مضاد لمعنى در، ضرّ ضرع البقر: جف وانقطع عن الدر.

وصوت "ن" أدى إلى صوغ: أن أنينا، وعن عنينا، وحن حنينا. وصوت بت، تحول فيه حرف "تاء" إلى أخرى هي منه شقائق بالمخرج، بط، بد، بض.

كذلك هو المعنى فنان، قيثارته الفم، فهو وإن استعان بالصور، المقتبسة عن الطبيعة الخارجية أو الطبيعة الإنسانية فاقتبس عن الأول تقليد أصواتها، وعن الثانية بيان مشاعرها الصوتي فإنه لم يقف عن الاكتفاء بما تعرضه الطبيعة عليه، بل أخذ يختبر قابلياته ويتفنن بالكشف عن دقائق تلونها، ثم يصطفي من هذه التجارب البديئة، المنظومات الصوتية التي هي أقبل بياناً عن تجلياته، الآخذة بالتسامي، وهو يستعين بالآخرين ذوي البنيان الرحماني المشترك على تقدير صدق أبداعه، استعانة الفنان بوقع ألحانه في نفسه.

ونحن نعيد هنا ما قد سبق لنا أن قلناه عن الاختلاف في البيان بين لساننا ذي الطابع الفني وبين غيره من اللغات: "يمشي الإنسان على رجليه، وتدب البهائم على قوائمها

وتزحف الديدان على بطنها، وكذلك هي الأقوام، اختار بعضها أسلوب الزحف في البيان، وآخر أسلوب القفز، وأما العرب فقد كان الإنسان لهم قدوة في البيان.

إن اللسان العربي مجموعة من الركائز الصوتية، يستند إليها الذهن في سيره نحو الحقيقة وهو في ذلك لا يختلف عن غيره من اللغات، إلا أنه يمتاز عن سواه بإيجاز كلامه وبتلون حروفه وبدقة حركاته.

2ـ يلخص الهيجان الحياة التي هو منها ظاهرة. يتألف الهيجان من شعور وبوادر Expressions كما تتألف الحياة ذاتها من روح وجسد والبوادر في انكشاف المشاعر وتجسيدها بمثابة الجسد في نموه من استجلاء كوامن الحياة. وإذ اشتق الذهن العربي كلمة "رشيم" التي تعبر عن حدسه في الخلية المولدة من رشم بمعنى رسم، دل على نشوء الأنواع، إن لكل نوع من الأحياء مصيره المحدد له منذ البداية فمستقبل الأسد مثلاً ـ انكشاف لما انعقدت عليه الحياة في رشيمه كما أن مستقبل ابن الوأواء انكشاف لما انعقدت عليه الحياة في رشيمه الخاص.

ومن وجهة نظر أخرى اتخذ الذهن العربي كلمة "مصور" للتعبير عن حدسه في أصول روائع الفن والأخلاق. فكلمة "مصور" من التحفة الفنية بمثابة الرشيم من الكائنات الحية. وكما كانت كلمة "مصور" تتضمن اتجاهي حدس الصورة: الصور (الشكل) والصيرورة، فقد بدت للذهن العربي المعاني منطلقة من فوق سلسلة الحوادث منطلقة وهي تحمل هوية معينة. ونحن نختار كلمة (مداد) Rythme الحاصل تكوينها من تصالب بين المدة والامتداد للتعبير عن الحركة التي بها يندرج المعنى في نسيج الكائنات. مثل المصور كمثل الرئيم، كلاهما يبزغ من فوق سلسلة الحوادث وكلاهما ينتشر نامياً في ظرف حاصل من تصالب بين الزمان والمكان. وهكذا تتجلى الحياة في جميع مراحلها (كمنظومة آمدة Systeme se rythme).

في الهيجان يخلق الشعور عبارته منظومة من الآمدة ذات طابع بديء. والمصور هذا ينمو باستقطابه العبارات الجاهزة في الجسد. مثل الشعور في استقطابه العبارات الجاهزة كمثل شاعر يستعين بالكلمات المتعارف عليها للتعبير عن إلهامه ذي الطابع البدئي. ولما كانت البوادر متنوعة وكان

أحداها الصوت فقد اختار الذهن الصوت وسيلة بيانية يعدل به البوادر الأخرى، كما نعدل بالعملة السلع المختلفة، وأما ما جعل الذهن يصطفي الصوت من بين البوادر هو خضوعه للإرادة وصلاحه للانتقال عبر المكان، وهكذا أصبح الصوت أداة للإفصاح عما تختلج به النفس من جهة، ووسيلة للتفاهم والتعاون بين الأخوان من جهة أخرى.

ومن الوسائل التي توسلت بها الحياة للتعبير عما يختلج فيها من معان وضع الجسد (حركاته وإشاراته) كما هي الحالة عند الصم البكم ولكن سرعان ما استعاضت الحياة عن وضع الجسد بالصوت لما في ذلك من تخفيف للجهد المبذول في إحداث العبارة. ولم تبق الحياة عند حدوث الصوت فقد استعانت أيضاً بحس الرؤية لما في ذلك من تلون ودقة. وهكذا أصبح الصوت المعادل في البيان للإحساسات الأخرى. وهكذا أصبح حس الرؤية أو ما يعوض عنه بالخيال المرئي في تعيين الارتباط بين الصوت وبين الحالات الوجدانية المنوي التعبير عنها كمثل الرصيد المالي في تعيين قيمة الأوراق المالية. وها نحن نوضح الرأي المتقدم بالأمثلة التالية.

الملح. محل التحسس به اللسان، ولكننا نشخص هذا الحس بصورة مستعارة من حس الرؤية. فكلمة "ملح" ترجع بأصولها إلى "مل" والملة هي الرماد، ومن الرماد انتقل الذهن إلى الملح الذي نطعم به الطعام.

خش، محل التحسس بالخشونة الجلد. ولكننا نشخص هذا الحس بصورة مستعارة من حس الرؤية إذ أن الكلمة ترجع بالاشتقاق إلى صوت "ءِ ش" الصوت الذي يحصل من جسم متحرك في العشب.

وبعد ذلك، نعود إلى موضوع حديثنا وهو أن الكلمة صورة، فضلاً عن أنها عبارة يعبر بها المعنى عن ذاته. بدأت الحياة بالتعبير عما يختلج فيها بكلمات ذات مقطع واحد. وعندئذ كانت العلاقة بين الصوت والمعنى علاقة طبيعية بمعنى أن المعنى هو صدى حدوث الصوت في الوجدان، ولكن لما أخذ الذهن يستعين بالأصوات الطبيعية علاوة عن الأصوات المحدثة في الفم أو عن الأصوات المعبرة عن الهيجان لما أخذ يستعين بها في صوغ كلامه بدأ يراعي الصناعة في هذه الصياغة، متوخياً السهولة والرشاقة ولو أدى ذلك إلى

الخروج عن القواعد وإليك موجزاً عن النهج، الفني الذي سلكه في تحقيق ذلك:

1ـ يبدأ الذهن العربي بالحركة ولا يقف على الحركة ولذا فإنه يحدث تعديلاً في بنية الكلمة تحقيقاً لهذا المبدأ: ابن من البناء، أنا من نه، انقطع من نقطع، انكشف من نكشف، ادخلت الهمزة تسهيلاً للتلفظ. أسماؤه بدلاً من سماؤه. هذا خالد بدلاً من هذا خالدٌ علامه بدلاً من علام... الخ

2ـ تطور الحركة في صلب الكلمة تبعاً لطبيعة حرف البناء الذي يكتنفها. تقترب الفتحة من الألف بين الحروف: غ، ع، ح، خ ط، ظ، ص، ض. لعب، خمر.. الخ. وتقترب الكسرة من الياء: علم، قشر.. الخ. والضمة تقترب من الواء: حسن، لطف، عمر. وفي أحوال أخرى تستدق الحركات: كتب، مركب.

3ـ التطورات التي يحدثها الذوق العربي من حذف أو قلب أو تسكين في حروف العلة (الإعلال): يرث (والأصل يورث) وقال (والأصل قول)، ويمشي (والأصل يَمْشِيُ).

4ـ الإبدال وهو إزالة حرف ووضع آخر مكانه: دعاء، والأصل: دعاو، وبناء (والأصل بناى) ادعى وأصلها ادتعى. واذدكر (وأصلها: اذتكر) وازدهى (وأصلها ازتهى)، اصطفى (وأصلها: اصتفى)، امحى (والأصل انمحى). الخ...

5ـ الادغام: إدخال حرف في حرف آخر من جنسه بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً. والإدغام يكون في الحرفين المتقاربين في المخرج كما يكون في الحرفين المتجانسين مد، يمد، مُد (وأصلها مدد، يمدد، مدد).

تلك هي الكلمة العربية صورة مؤلفة من عناصر صوتية على مثال الأنظومة، وهي ككل أنظومة تجيب على ضرورة بيانية وعلى ضرورة فنية أيضاً (الرشاقة والسهولة).

بين الاسم والفعل

جرت العادة على تقسيم الجملة إلى فعلية واسمية والفعلية أصل، أن أول ما أثار انتباه الذهن العربي واهتمامه الحركة، لا الشيء المتحرك، مثل الذهن العربي بذلك كمثل الأحياء نفسها، فلما يظهر الخيال على الحائط

متحركـاً يقـف القـط أمامـه مدهوشـاً. ولكـن إذا مـا ثبـت الخيال انصرف القط إلى سبيله. وكثيراً ما تتقي الحيوانات عدوها بلجوئها إلى السكون ومن هنا كان استخدام كلب الصيد لإيقاظها فسهولة اصطيادها.

وعنـدما نقـيم المقارنـة بـين جملـة عربيـة وجملـة أخـرى مقتبسة من إحدى اللغات الحديثة كاللغة الفرنسية مثلاً، نـرى الاختلاف بينهمـا، مـن حيـث ترتيـب مقوماتهمـا، جليـاً. تبدأ الجملة الفرنسية بالفاعل ثم يليه الفعل.. بينما الجملة العربية تبدأ بالفعل، ثم يليه الفاعل وأخيراً الملحقات المتممة للمعنى.

وإلى جانـب الاخـتلاف المتقـدم بينهمـا، نجـد بعـض الكلمـات في الجملـة الفرنـسية تحمـل طابعـاً سـلبياً أمثـال: (Infini, impossible, irregulier) ..الخ. وأمـا الجملـة العربيـة، فتبقـى فيهـا الكلمـات صـوراً ذات طـابع إيجـابي. والـسلب في اللـسان العربـي يقتـصر علـى الجملـة، مـا بريـت القلم. ولدى التأمل يبدو السلب ملحقاً عرضاً بالجملة العربية إذ أن الإعراب لا يطرأ عليه أي تعديل بعد السلب، على ما

كان من، قبل أي الإعراب وهو وظيفة الكلمة في الجملة يبقى واحداً في حالتي السلب والإيجاب.

ونحن نستخلص مما تقدم أن اللسان العربي بدأ مع يقظة الحياة على المعنى، بينما اللغات الحديثة الأخرى تحمل طابع المنطق أي ما يبني العقل والعقل وحده يهتم بالموضوع، بالفاعل والعقل لوحده يفترض المتناقضات ويتبنى أحدها.

خص الذهن العربي كلا من الفعل والاسم بعلامة مناسبة، خص الفعل البدائي بالشدة علامة تواصل الفعالية: بتّ، خرّ، نزّ، ترّ، فقّ..الخ، أو بالرجع: فقفق، خرخر، نزنز، ترتر الخ.. كما خص هذا الذهن الاسم بالنبرة التي تعبر عن حدث يخل بسكون الطبيعة. والفعل يقسم من حيث الزمن، إلى ماضي ومضارع، كما يقسم الاسم من حيث الجنس، إلى مذكر ومؤنث والشبه في الإعراب بين الفعل والاسم يكشف عن أن المبدأ في التمييز هو الفعالية والركون، فالمضارع والمذكر ينزعان إلى الفعالية والماضي والمؤنث يلزمان الركون، وكنا قد بينا في محل آخر من هذه الرسالة أن المضارع حاضر ينزع إلى المستقبل وإعرابه الضمة. تعبيراً عن نزعته، وكذلك الاسم المذكر.

والـضمة تفيـد معناهـا هـذا بحـسب نمـط حـدوثها مـن تـدافع الـصوت، وأمـا الماضـي فبنـاؤه علـى الفـتح تعـبيراً عـن ركـونه، عن دخوله في عالم الإمكان والفتحة تفيد معناها هذا بحسب حدوثها من ركون اللسان عند خروج الصوت. وكذلك علامات التأنيث التي هي تحولات حركة الفتح: ة، ي، أ.

تساءل النحويون أيهما أسبق في الظهور الفعل أم الاسم. هذه المناقشة قد طرحت على مستوى آخر بين ممثلي الثقافة السامية والجرمانية. وردت في الإنجيل أية تلخص وجهة الساميين في المشكلة المطروحة وهي: في البدء كان الكلمة.

ويرد غوته شاعر ألمانيا على الحكمة السامية بقوله: (فأما أنا فأقول أنه في البدء كانت الفعالية، والاختلاف بين الساميين والجرمان يرجع إلى أيهما أسبق الواقع أم المثل الأعلى؟ ونحن نعتقد بأن الحقيقة هي أنه ليس ثمة انفصام بين الواقع والمثل الأعلى، فيسبق أحدهما الآخر، فالواقع يدعو، والنفس تجيب على الدعوة بصيغة مثلى كما هي الحالة بين الدائرة المرتسمة على اللوح وبين تعريف الدائرة

الـذي يجـب بـه العقـل تعريفـاً مـستوفياً شـروط مقوماتـه الأساسية. وليس الواجب إلا الاستجابة القويمة على خلل في بنية الحياة (الرحمة) أو في بنية المجتمع (العدالة) وذلك ما يدعو إلى القول أن الفعل والاسم هما حالتان للمعنى المنبثق من الملأ الأعلى (الحدس) والصورة الصوتية التي يتمثل بها المعنى هي المصدر. والمعنى المنبثق نزوع ويحمل هويته الخاصة كمصور حتى إذا ما تبنته الإرادة اكتسب بهذا التبني الفعالية المدرجة في نسيج الزمن فأصبح فعلاً. وأما الاسم فهو المعنى مستفاض في المكان، واقتراب الكسرة وهي خاصة بالاسم والسكون وهي خاصة بالفعل يزيل ثنائية التقسيم بين الفعل والاسم في الإعراب المعبر عن وظيفة الكلمة في الجملة.

يقف الذهن موقف المقبل على الأحداث أو أنه يعرض عنها. فإذا هو أقبل عليها حول الفعالية إلى المضارع أي حاضر ينزع إلى المستقبل، وإذا هو أعرض عنها حولها إلى ماض مندرج في عالم الإمكان. والمضارع أصل وعلامة إعرابه التي هي الضمة بيان الفعالية تدل على ذلك كما حصل المؤنث من إلحاق إحدى علامات التأنيث التي هي

تحولات الفتحة، بالمذكر. واشتراك المضارع مع الفاعل في علامة الإعراب دليل على أن الفعالية أصل والسكون إنما هو حالة مشتقة. موقف الذهن من الأحداث وتحويله إياها إلى فعالية أو سبات يذكر بذكاء "الشمس" التي من اسمها اشتق الذهن العربي كلمة "ذكاء" في النفس. تشرق على الأرض فتبعث بإشراقها الحياة في الأحياء (يتفتح الزهر، وتغرد الطيور وتسرح الحيوانات.. الخ وهي أي الشمس إذا غربت انتقلت الأحياء إلى سبات. وقد خص الذهن العربي بحالتي اليقظة والسبات الوجدان الضمير. حالة الوجدان هي اشتراك الأحياء في اليقظة، وحالة الضمير هي حالة السبات. وكلمة "ضمير" تعبر معناها باشتقاقها من ضمر بمعنى اختفى وهزل. وكأني بالحالات المنطوية في عالم النسيان تفتقر عودتها إلى ساحة الشعور إلى شفق الذكاء.

وعندما نقيم المقارنة بين شكلي الفعل: الماضي والمضارع نجد بساطة الأول حتى الإهمال وزخرف الآخر بمعنى اكتنافه بالضمائر (الجنس والشخص والعدد). وفضلاً عن ذلك نجد المضارع يحتمل حالات مختلفة: حاضر، حاضر نزاع إلى المستقبل، الجزم (كان محتمل

وقوعه ولم يقع) النص محتمل الوقوع في المستقبل. في هذه الحالات تتكيف علامة الإعراب من ضمة إلى سكون فإلى فتحة. إذا ما أقيمت المقارنة بين اللسان العربي وبين إحدى اللغات الحديثة كالفرنسية مثلاً نجد البون شائعاً بين ذهني العرب والفرنسيين، اهتمام العرب بالمضارع واهتمام الفرنسيين بالماضي. ونحن نستخلص من المقارنة الفكرة التالية:

ظل الذهن العربي منساقاً بغريزة الحياة في تطلعها نحو المستقبل بينما كان الآخرون أميل إلى الماضي (الذهنية الرجعية) أمة بدائية وأمة تاريخية.

تدل مسميات الأعداد باشتقاقها على أن مفهومي التعداد والمكان صنوان، وأن كليهما قد نشأ نشأة عقلية. الحس يوحي والعقل يرفع بالمحسوس على الصيغة المثلى. فاسم واحد مشتق من الحد، والاثنان من ثنى (حدين) والثلاثة من الثلة (ثلاثة حدود) والأربعة من التربيع (أربع حدود) والخمسة من خمص اليد (الأصابع الخمسة، والوحدة الرياضية كثرة تم إدراكها من خلال وحدانية (أنا الحية) ومن هنا كان إمكانية تجزئة الواحد إلى كسور

غير متناهية، إنها كثرة من خلال العينية المفترضة من قبل العقل.

لقد بدأ الجمع للذهن العربي ساكناً كما تبدو لكل منا جمهرة الناس من بعيد، ومن هنا كان التقاء الجمع مع المؤنث في علامة الركون التي هي تاء القصيرة الحاصل تكوينها من الفتحة. ومن هنا كان اسم المرة بتحديد اسم المصدر (نصرة) ومن هنا كان اسم المبالغة المعبر عن حالة النمو بالتحديد: علامة. وإذا سقطت علامة التأنيث مع المؤنث، فذلك لأن الذهن العربي ينفر من حالة السئم التي يسببها التكرار. وأما أمر تذكير الواحد والاثنين مع المذكر، وتأنيثهما مع المؤنث فيرجع إلى التباس نشأتهما بالحياة الاجتماعية وبعد أن تم تمييز الجنس بينهما.

يختلف الفعل مع اختلاف الجنس: قام الرجل، قامت المرأة، ولكنه يستقل عن العدد: قام المؤمن، قام المؤمنون.. إلا إذا انشأ العقل الجملة، فعندئذ يخضع العقل لحكم العدد المقدم على الفعل، المؤمنون قاموا.

يميز الذهن العربي بين الأشياء والبشر، فيخص هؤلاء بعلامة هي مفخم علامة المفرد مؤمن مؤمنون، مؤمنة

مؤمنات. بينما علامة جمع الأشياء (الجمع المكسر) يتبع وقع الأشياء نفسها على الذهن: كرسي كراسي، بيت بيوت... الخ.

وفي الختام نقول: حذار من الدخلاء على حرجنا المقدس، إنهم يفككون أواصر كلامنا فيجعلون كلماتنا على أمثال الأوراق المنفصمة عن أغصانها: رموزاً هامدة.

نقدم من كتابنا العبقرية العربية في لسانها هنا مثالين عن النهج الذي سلكناه في دراسة هذا اللسان.

ذكاء

إن كلمة ذكاء، مشتقة من "ذك" وهي صورة صوتية مدادية تنطوي مع أخواتها: "صك" "ضك" "د ك" على اتجاه يتضمن معنى الاحتكاك "الدلك" بحسب بيان الحرف "ك" والكلمات المعبرة عن بعض تجليات الحدس الحسية هي: "ذكت" النار، اشتد لهيبها "ذكى" النار أوقدها، الذكوة، ما يلقى على النار فتذكى به، "الذكاء: الجمرة المشتعلة، ذكاء: اسم علم للشمس (تفيد هذه الصورة الشدة

والاشتعال) "المذكى" من السحاب: غزير المطر، "ذكى" الرجل: تقدم في العمر وبدن، "المذكى" من الخيل، ما تم سنه وكملت قوته (وهذه الصور تفيد الشيخوخة باستكمال شروط النمو، "الذكاء": سرعة الفهم وحدته.

يتلخص من هذه الصورة الحسية والمفهومات الذهنية، المعبرة عن اتجاهات هذا المصدر، أن الحدس العربي هو أن الحقيقة تستطع، بتباين الأفكار، كما يحصل النور باحتكام الأجسام. فكان الذهن العربي قد أدرك حدساً، الشبه بين تحولات الوجدان من الإبهام قبيل اليقظة، إلى الوضوح فالتأجج، عند استكمال شروط هذه اليقظة وبين الشمس الساطع نورها والحاصلة من تكاثف السديم وتبلوره فعبر عن "الذكاء" (النور المنبثق عن استجمام النفس، بكلمة "ذكاء" صورته المحسوسة، فلخص بذلك عقيدة الأقدمين المشيرة إلى أن الشمس رمز للإله، كما لخص أيضاً الفلسفة اليونانية الحديثة التي تعتبر الذكاء معنى الوجود.

وإذا كانت الموجودات تصبو إلى الشمس، مصدر انبثاقها، فالحالات النفسانية أيضاً تصبو إلى الذكاء، النور

المنبثق عنها، وعلى شفق هذا النور، تصطفي النفس الحالات المختارة وتحققها فيتضح، حينئذ لغز الوجود، كن فيكون.

وليس عبثاً إذا اتجهت أنظار الإنسان إلى السماء، حيث تفيض الشمس بنورها فتغمر به الكون إذ أنه أدرك، بهذه الصورة قرارة نفسه ملقاة Projetée على الكون، هذه القرارة التي ترتقي إليها النفس باستجمام تجلياتها، فينكشف لها بنيانها، حينئذ متحلياً بهذا النور المتكيف بالتسامي، وكل درجة ارتقاء تمنح صاحبها أفقاً متناسب المدى بالنفوذ.

ولئن كانت المعرفة الرحمانية، مطلقاً تأثيرها في سلوكنا فالمعرفة الكونية تتحقق أيضاً بواسطة بنيان بدننا المجهز بمنظومات مدادية Systemes de rythme متفاتة التفرع، ذات بنسان رحماني Sympathique أصيل.

فبذلك يكمل الشبه بين "ذكاء" وبين صورته الحسية "ذكاء" التي تزيد من إمكانيتنا العملية.

اسم الكيفية

كنا قد أوضحنا في بحث النسبة الحدس العربي بتمييز الصفة، أو الحالة المنبثقة عن ذات المفهوم، من الصفة المنسوبة إليه، فقد عبر الذهن العربي عن حدسه في الحالة الأولى بالكسرة أو بحرف الياء مفخم الكسرة مندمجة في صلب الكلمة، وعبر عن الحالة الثانية بإحدى هاتين الحركتين إلا أنهما ملحقتان بالكلمة. وكنا قد ألمحنا أيضاً إلى أن هذا الفرق ليكشف عن اتجاهي البنيان النفساني، أي الانبثاق والتلازم: انبثاق في الحالة، وتلازم في النسبة بحيث تتضح الحالة المنبثقة، فيحقق (النهج التحليلي). والمعرفة وأن ابتدأت بالتلازم فهي تنتهي بالانبثاق غايتها (البصيرة) فتسير بذلك على عكس نمط الوجود. وإذا كان الخيال يحصل من انعكاس الأشعة المنبعثة عن صورته، ومن تحدد هذه الأشعة في المرآة، فالأشياء والطبيعة المتألفة من هذه الأشياء، هي أيضاً خيال الحقيقة المنطوية عليها نفوسنا. ولكنه على عكس السابق خيال يحصل من تحقيق إمكانيات علمنا وعملنا في الكون.

ولئن كانت المرآة توقف الأشعة، فالكون يكشف بالنسبة للنفس عن الوجود ويحققه. وهذه الإمكانيات وإن بدرت من فوق المكان موحدة فهي بتحققها تبدو من خلاله متفرقة، وذلك بتلازم حصولها مع حدوثه (أي المكان) فإذا ما استجمت هذه الأشعة "الإمكانيات المتجلية" في وحدة إدراك "بصيرة" انقشع حينئذ حجاب المكان وزال الافتراق فسطعت آية Idée الطبيعة حقيقة في النفس وإن النفس لتنمو بتجاوب قطبيها، الخيال وآيته أو الطبيعة والملأ الأعلى. أما الفكرة المجردة فكائنة بين الخيال والآية. إذ أنها تقتبس عن الأولى عناصرها وعن الثانية وحدتها وقد خص الذهن العربي بعبارة الفكرة المجردة اسم الكيفية (فأنشأه من النسبة بإضافة (ة) إلى آخرها فأشار بذلك إلى تولدها مع المكان وثبتها فيه.

فمن عقل مثلاً عقلي، عقلية، ومن ذهن، ذهني، ذهنية جسم جسماني، جسمانية روح، روحاني، روحانية.

***

وجهة التطور في اللسان العربي

لقد تطور كل من زمرتي لغات أوربا الحديثة واللسان العربي في اتجاه مباين للآخر. تطور اللسان العربي نحو بنيان عضوي، تستكمل به الكلمة شروط كيانها بالتعبير عن إنسانية متسامية، وتطورت اللغات الأوربية الحديثة نحو بنيان ميكانيكي، تتحول به الكلمة من صورة إلى رمز يلتحق به المعنى عرضاً واتفاقاً. ثم إن كلا من هذين التطورين انتهى به الأمر إلى نتائج خطيرة في ثقافة أصحابه، الساميين أو الآريين، فرعي العرق الأبيض.

وإلى هذا الاختلاف في التطور، يرجع التباين في البنيان بين الذهنية العربية السامية وبين الذهنية اليونانية الأوروبية. فقد تحولت الأولى إلى ثقافة ذات طابع رحماني، وتحولت الثانية إلى ثقافة ذات طابع نسبي.

فما إن تحولت الكلمة في اللغات الأوروبية الحديثة من صورة إلى رمز يتصرف به العقل كيفما شاء، متخذاً منه أداة، حتى مهدت لمتكلميها السبيل إلى فقه حدس اللانهاية، الحدس الذي بلغ به العلم غايته من إيجاد قوالب رياضية، تندرج فيها الحوادث الطبيعية، فتشف على الفهم وتخضع لطائلة الإرادة، وعندئذ اكتسب الذهن الاستعداد لإدراك النظام قانوناً في الكون وعدلاً في المجتمع وعقلاً في النفس.

وما أن رسخ التلازم بين الصورة والمعنى في أسرة الكلمة العربية، حتى أخذت المدلولات الحية والمفاهيم العقلية تتجاوب فتذكي بتجاوبها صبوة الذهن العربي إلى الحقائق المنطوية عليها النفس الإنسانية، ذكوة يتخطى بها المرء نسبية المظاهر مرتقياً نحو الوحدانية المطلقة.

إن الاختلاف بيننا وبين غيرنا من الأقوام، لم يقف عند حد التباين بين الطبيعة والإنسانية، إذ أن العقل الأوربي، بتأثير نزعته إلى النسبية، أخذ ينحدر نحو سطح الحياة فيتحول بانحداره من نام إلى راكد، وأخذت نزعته هذه تشتد وتقوى، لمسايرة صاحبها للعلوم الطبيعية، حتى انتهى

به الأمر إلى أن عد الوجدان، على غرار الطبيعة، مؤلفاً من صور يدعو بعضها بعضاً وفق قوانين معينة، كتداعي الحوادث الكونية في الطبيعة. وإذ زعم "هيوم" بأن الحالات النفسانية تخضع بتداعيها للعادة خضوع الحوادث الكونية للعطالة، فإنما كان يرجو إبلاغ الفلسفة كمالها مثلما أبلغ معاصره وابن جنسه "نيوتن" للعلم غايته باكتشافه نظام الجاذبية العام. ولكن خيبة، "هيوم" في الفلسفة ونجاح "نيوتن" في العلم خير دليل على الاتجاه الأصيل لتفكير أعلام أوروبا.

إن نزعة الذهن الأوروبي هذه إلى إدراك الإنسانية من خلال الطبيعة قد ظهرت، من قبل، في الفلسفة اليونانية، وما كانت المحاولة التي قام بها فلاسفة اليونان الطبيعيون، لإرجاع الطبيعة والإنسانية معاً إلى مبدأ مشترك بين الكائنات، إلا محاولة تغلب فيها التفكير بالتداعي على التفكير بالمصمم، أي محاولة قام فيها التأويل بالأسباب والنتائج مقام الإيضاح بالإبداع والانبثاق. أفلا يرجع إلى هذه المحاولة أمر ظهور القدر مسيطراً على الحياة؟ وأمر ظهور الوجدان تاريخاً سرمدياً؟

وأما الانقلاب الذي أحدثه "سقراط" بتوجيه التأمل نحو المفاهيم في حالة انبثاقها من النفس، فإنه، على رأي "أفلاطون" (تلميذه ومدون فلسفته) يرجع بأصوله إلى مبادئ دخيلة على بلاد اليونان ومع هذا "فسرعان ما طمس اليم مجرى الباخرة".

وبينما كان الذهن الأوروبي يتحول من النسبية إلى المادية، كانت الكلمة العربية، بتلازمها مع شقائقها، تمهد لذهن صاحبها سبيل الصعود إلى الآيات في مصادرها، تمهيد الأنغام سبيل ظهور الإلهام في الوجدان.

إن الكلمة العربية لهي عبارة شفافة تنم عن معناها فتذكي صبوة الذهن نحو الملأ الأعلى، ذكوة تتناسب شدتها مع رفعة الصعود في هذا المنحنى؛ وإذا ما ألم الإنسان بأصول مظاهر الحياة المتبلورة حدوساً في هذا اللسان، انكشفت له الآية حقيقة إنسانية واتضحت عندئذ له حكمة وجود الانسجام بين مظاهر اللسان المختلفة.

إن اللسان العربي ببنيانه، ليكشف عن نمط الوجود في حالتيه: الطبيعة والتاريخ؛ فتدل فيه المصادر والمفاهيم المنطوية عليها على وحدانية الانبثاق وانسجام المظاهر، وتدل

الأفعال الحاصلة من المصادر على تحول الكائنات الدائم. وإنما أسماء الجنس حدس المصادر المتبلورة معانيها في أشياء مستفاضة أو في صفات منبعثة انبعاثاً.

ولما كانت الكلمة العربية بادرة طبيعية، تتمتع بالتعبير عن الهيجان وبنقله إلى الآخرين، فإنها تؤثر، بإيجاد التفاهم بين الناس وبخلق التعاون بينهم، على تحقيق الأهداف المشتركة؛ مما دعا إلى القول المأثور: إن من البيان لسحراً.

فلئن كانت الكلمة العربية تؤلف بين ال "أنا" وال "أنام" بالمشاعر ذات البنيان المشترك، ولئن كانت توجه الذهن نحو المعنى، باشتراكها في النزعة مع شقائقها، فقد أصبح صاحبها أكثر قابلية من سواه لفقه الإنسانية. والكلام العربي، إذ يخلق بمنظومته الانسجام في النفس من جهة والانسجام بين النفوس من جهة أخرى، ليجعل الحياة تفيض بالمشاعر وتحمل صاحب هذا الفيض على التضحية مهللاً.

إن الاختلاف بين اللسان العربي واللغات الأخرى، إنما هو اختلاف بين الفطرة والعادة؛ مثله كمثل الاختلاف بين الينابيع المتدفقة وبين الآبار ذات الأقعار المتصلة، الآبار التي

يكلف فتح مجراها الكثير من الجهد، وتعجز مياهها عن تطهير هذا المجرى.

أما إذا زاغت الكلمات العربية عن حدسها، فإن المؤسسات المشيدة عليها تتقلص، وعندئذ يصبح المجتمع مشلولاً كالجسد الذي خرجت فيه العظام من أحقاقها.

يحدث هذا الزيغ من تداخل الميول بتأثير الهجانة، فضمور القيم الرفيعة من جراء هذا التداخل، حيث تتقمص المفاهيم صوراً هجينة.

إن ما يجب علينا، والحالة هذه، أن نبدأ بعثنا القومي ببعث كلامنا، وأن نحذر على حرجنا المقدس هذا من الدخلاء على بيئتنا.

***

أصالة المعنى في الكلمة العربية

لدى إقامة المقارنة بين اللغة العربية وبين لغة أخرى كالفرنسية مثلاً، يتبين أن جذور الكلمات الفرنسية في التاريخ، وجذور الكلمات العربية في ما قبل التاريخ، في الطبيعة. ونحن نعني بذلك أن كلاً من الكلمات الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين، من تحوير إحدى كلمات اللغة اللاتينية. ومن هنا أيضاً أتى اعتبار الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين، من تحوير إحدى كلمات اللغة اللاتينية. ومن هنا أيضاً أتى اعتبار الفرنسية لغة مشتقة لا أصيلة وما قيل عن الفرنسية ينطبق على لغة الأم اللاتينية، إذ أن كلاً من كلمات هذه اللغة قد حصلت بدورها من تحوير كلمات اللغة الهندية ـ الأوربية أرومة اللغات المنتشرة من شمالي أوروبا حتى جنوب الهند ـ واللغة

الهندية ـ الأوربية ذاتها ليست بدائية، تضيع جذور كلماتها في مجاهل التاريخ.

وأما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي ترجع كلماتها جميعاً إلى أصوات طبيعية. والأصوات التي منها صنفت العبقرية العربية أداة بيانها هي أولاً بادرة الهيجان الصوتية وهاك مثالاً عنها: كلمة "حب" ذات نشأة صوتية تشترك مع (هب) و(أب) فتعبر عن معنى الظهور والاعتلاء، معنى تنطوي عليه عبارة الهيجان التي تحصل لدى القفز في الهواء وربما كانت كلمة (up) الإنكليزية راجعة بنشأتها إلى هذا التعبير الطبيعي. أما الأحرف الأولي المتحولة في هذه الكلمات أي أحرف (ح) و(أ) و(هـ) المتقاربة بالمخرج فتعبر عن تلونات الحدث المنطوية في تلك النشأة.

ومتى تعتلي الصورة في الذهن فتظهر على سواها فيه؟ أليس لدي توجه الذهن إليها بالانتباه؟ لكن الانتباه ينطوي على ميل النفس بمثابة الأبرة من الحاكي. إن العلاقة بين الميل وغرضه على مثال العلاقة بين الأنشودة المسجلة على الأسطوانة والأبرة: هذه تبعث بالتموجات الصوتية المحفورة في الأسطوانة أخاديد وذلك تبعث بالحركة. وكذلك هي

العلاقة بين الأشياء والغرائز وبين التحفة الفنية والإلهام. وإنما شخصية المحبوب هي صورة روح من يحب، صورة مجسدة.

إلا أن الغرض يرمز إلى نزعته رمزاً فإذا ما قصر شخص المحبوب عن مثله الأعلى (نموذجه) لجأ المحب إلى الخيال كيما ينشئ صورة مثلى يعوض بها عما كان من تقصير في الواقع. وليس لسبب آخر ترجع الخيبة في الحب. إن الحب حدس ندرك به المستقبل جملة إدراكاً تبعث به إمكانيات الحياة أمنية ورجاء وإذا كانت هيئة المحبوب توقظ كوامن الحياة وتساعد على استجلاء الصورة المثلى في الوجدان، فإن الصورة المثلى أيضاً تفضي من روائها على سبب انبعاثها فتجعله أقرب إلى الكمال. إن شأن الحب لهو أن يجعل الحياة تستجلي نماذج ذوات معالم أوضح فأوضح.

ويبدو الحب أما كميل يتجه نحو الواقع وأما كصبوة تتجه نحو المثل الأعلى فهو ينزع في الحالة الأولى إلى صبوة جذورها في الجسد، ويصبو في الحالة الثانية إلى حيث يستقر المثل الأعلى فيعوض بالرفعة على صاحبه عن قصور الواقع. ولكن لما كان سبيل الإمكان متشعباً وكان ما

يؤدي منه إلى المثل الأعلى ضيقاً حرجاً أصبح الحب لا يبلغ مداه إلا في النفوس المجهزة بفسحة الخيال وبذوق عريق في الأصالة.

إن الحب هو الشعور بروعة المثل الأعلى المتجلى في نفس الذي يهوى.

وقد استعانت العبقرية العربية في إنشائها الكلمات بالأصوات التي تحدث في الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء، "و ء ش" الذي يحصل من دخول جسم متحرك في العشب ومنها حس وخش وعش.. الخ ومن عشق اشتق الذهن العربي كلمة "عشق" بإلحاق حرف (قاف) بت (عشَّ)، الحرف المعبر عن المقاومة. يفيد هذا الاشتقاق إن الغرض من العشق هو إنجاب البنين (امتداد لعش الطائر). أما المقاومة هي هنا الدلال فهي وسيلة تثير بها المرأة كوامن حياة الرجل وتذكيها بغية إنجاب أجيال أكمل فأكمل. فالعشق ينطوي إذاً على الاصطفاء وعلى نزعة الحياة إلى التطور والكمال. أما الخطوبة فتبشر بأصولها (خط) إلى التشبث والإقدام، إلى الحدس المتضمن كل المستقبل الذي يكاله الزواج

حسبما تشير هذه الكلمة إلى عودة الرجل والمرأة إلى الوحدانية المثلى (وحدة الزوج).

وثمت أصوات تحدث في الفم، استعان بها الذهن العربي في التعبير عما يجيش في النفس كصوت قض ومنها قضم وقضب.. الخ.

وفضلاً عن أن اللسان العربي بدائي النشأة، فإن كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفوياً، من انبثاق المعنى دون طائلة العقل. هذه الحقيقة تدل عليها أمور مختلفة منها: أن أصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير إلى العلاقة بين اللغة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة.

ونحن نستخلص من ذلك أن معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلاً مستقلاً عن اجتهاد المجتهدين. فما للذهن إلا أن يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي أنشأها. وهكذا تلتقي الأحفاد مع الأجداد في تجربة الحياة الأصيلة. بل هكذا ينشئ النوابغ صرح الثقافة من الحدس المشترك في الحقيقة، بينهم وبين الجمهور. وأما شأن الخيال

من استجلاء الحدس المشترك هذا فهو بمثابة الموسم في استجلائه كوامن الحياة في بذور النبات.

إن ما يساعد الذهن على استجلاء المعنى هو الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات العربية بحيث تصبح الكلمة في أسرتها كالنغم في تضافره مع شقائقه الأنغام في دعوة الإلهام إلى البدور في ساحة الوجدان حتى لكأن الكلمات في الأسرة الواحدة من الحدس المشترك بينها بمثابة القصيدة من إلهامها. وإن كان الفنان في إنشائه الصور المجازية أكثر حرية من الجمهور في استجابته على المسببات في وضع الكلمات. ونحن نعني بذلك أن الكلمات نوعان: نوع يعبر عن الأشياء الحسية وآخر عن المفاهيم المجردة. والكلمات الموضوعة للتعبير عن المحسوسات ساير الذهن في وضعها الحاجات المادية فهي مع ذلك تصبح تعاريف بالإشارة للمفاهيم المجردة كتعريف الشريعة بالشارع. وبينما تبقى الكلمات المعبرة عن المحسوسات خاضعة لمقتضيات الطبيعة الخارجية، تتحرر المفاهيم عن تلك المقتضيات فتصبح تجليات للحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق. حتى إذا ما

استقطب الذهن هذه التجليات اتضح الحدس وضوحاً تاماً،
كي يتضح معنى القصيدة لدى إلمام الذهن بمقوماتها.

***

الكلمة العربية ذات نزعة مثالية

لدى إقامة المقارنة بين اللغة العربية واللغة الفرنسية يظهر اختلاف آخر بينهما ألا وهو ثبات الأولى وتحول الثانية تحولاً دائماً. إن اللغة العربية تتمتع بالخلود بمعنى تبقى الحروف في الكلمات، والكلمات في بناء الجملة محتفظة بالشكل الذي اختاره لها الذهن العربي فاستقر عليه. غير أن اللغة الفرنسية تتحول كلماتها وقواعدها من جيل إلى آخر تحولاً بتعسر به على الأحفاد فهم الأجداد، مما يلجئ الخلف إلى الاستعانة بالترجمة للاستفادة من تراث السلف. هاك قصيدة عربية من العهد الجاهلي لقس بن ساعدة الأيادي ونترك للقارئ الاختيار لقصيدة فرنسية ترجع بالوضع لعهد شارلمان المعاصر لهرون الرشيد. ولو أقيمت بينهما المقارنة تبين صدق وجهة النظر المقدمة وأما القصيدة فهي:

في الـــذاهبين الأولـــين   مـن القـرون لنـا بـصائر

لمـــا رأيـــت مـــواردا   للمـوت لـيس لهـا مـصادر

ورأيـــت قـــومي نحوهـــا   تمـــضي الأصـــاغر

لا يرجـــع الماضـــي إلى   ولا مـــن البـــاقين غـــابر

أيقنـــت أنـــي لا محـــا   لـة حيـث القـوم صـائر

وأمـا السبب في خلـود اللغـة العربيـة فيرجـع إلى صـدق البيـان في هـذه اللغـة، إلى ثبـات العلاقـة بـين الـصوت والمعنـى. كنـا قـد بينـا أن للكلمـات العربيـة ثـلاث مـصادر أساسـية أولهمـا الأصـوات الـتي تقـع في الطبيعـة كصوت خريـر المـاء وثانيهما الأصوات التي تحدث في الفم وعندئذ معنى الكلمة هـو صـداها في الـنفس كـصوت "بـت" وأخـيراً الأصـوات الـتي هـي بادرة الشعور في الهيجان كصوت "آخ" .

ولما كانت حروف البنـاء في الكلمـة العربيـة تتحـك أمـا على الفتح وأما على الضم وأما علـى الكـسر، وكـان معنـى كل من هذه الحركات هو صدى حدوثها في الـنفس، فقـد أصـبحت الكلمـة العربيـة صيغة ينـسج الـذهن علـى غرارهـا

المشتقات الأخرى. وهاك مثالاً من أمثلة لا تحصى توضح به وجهة نظرنا.

صيغة التصغير: رجيل (من رجل) هذه الصيغة تقوم على تحريك الحرف الأول على الضمة إيذاناً بالفعالية (بحسب حدس حدوث الحركة في النفس) وعلى تسكين الحرف الثاني تعبيراً عن معنى الركون.

هكذا استوحى الذهن العربي صيغة التصغير من امرئ تظاهر بالشجاعة ثم تراجع متخاذلاً فأثار بتخاذله الهزء والسخرية وهناك صيغ الأسماء: الآلة والمكان والزمان والفاعل والمفعول.. وهناك صيغ الأفعال أيضاً: أفعل، فعل، استفعل، افعل.. الخ. ومن هنا إقامة الموازين في اللغة العربية.

وأما نظام حروف البناء في الكلمة العربية فيتبع طبيعة الصوت مصدر الاشتقاق. ومتى الحق حرف ما بالصوت الطبيعي انسجم الحرف الملحق بالصوت تعبيراً عن المعنى الملحوظ أو المعنى المستحدث. هاك مثالاً عما نعني بذلك. نبغ.

في الأصل حرف "ن" يفيد، بحسب حدوثه، معنى الداخل المغلق ثم الحق ب "ن" حرف "با" تعبيراً عن الخارج

فحصل من هذا الإلحاق: نب. وهذه أصبحت أرومة لكل من: نبت، ونبق، ونبك، ونبع، ونبأ.. الخ.

وكلمة "نبغ" التي استحدثت من نب بإلحاق حرف "غ" بها تغني الاعتلاء مع معنى الغموض. فكأن بالذهن العربي يدرك بأن التفوق بين الأخوان يأتي من بزوغ الإلهام في نفس النابغ، من تحت الشعور. وبناء على ذلك فإن ثبات الكلمة العربية يرجع إلى كمالها بانسجام الصوت والمعنى فيها.

هكذا ينسج الذهن العربي الكلمات المستحدثة على غرار صيغ استقر عليها. والاستقرار يتبع الحركات التي تعبر عن الوظيفة. والآية: لله المثل الأعلى في السموات والأرض، إنما تعبر عن نزعة الذهن العربي إلى الصيغ المثالية. فكأن الكمال هو الأصل في الذهن العربي. وأما الخطأ فيأتي من الجنوح عن الحقيقة وكلمة "خطأ" نفسها تشير باشتقاقها من خطأ إلى الحقيقة المتقدمة. وقد ترجع إلى نزوع الذهن العربي إلى الكمال نظرية ثبات الأنواع الحيوانية الواردة في كتبنا المقدسة. أو ليست الأشكال الهندسية ذات التعريف الكامل مظهراً للنزعة المثالية؟

وإذا ما بدا الواقع منحرفاً عن حقيقته ساور النفس القلق وعندئذ تشتد النزعة إلى المثل الأعلى حتى تصبح واجباً ملزماً للإرادة. تعبيراً عن هذه الحقيقة اشتق الذهن العربي كلمتي حق وحِقْ (العظم) من نفس المصدر. فكأني بهذا الذهن يشير إلى أن الواقع من حقيقته على مثال العظم من حقه، الانحراف يبعث في النفس الاضطراب والقلق وعلى قدر ما يبتعد الواقع عن الحقيقة يبدو الشوق إلى المثل الأعلى رجاء بعيد المنال كما هي الحالة في الشعوب الهجينة التي تستشف من خلال واقعها المزور حقيقتها.

يظهر التحول، عندنا، في اللغة من الفصحى في الجاهلية إلى اللهجة العامية في عهود الانحطاط ويظهر تحول آخر أيضاً مرافق للأول من وجهة نظرنا إلى المثل الأعلى. إن الجاهليين إذ كانوا يجعلون الحياة وقفاً لأغراض تتعداها كانوا مثاليين. إنهم كانوا يرون المثل الأعلى في متناول يديهم، مندمجاً فيهم، قوام شخصيتهم. حينذاك كان المثل الأعلى من النفس كالتعريف الذي يبنيه العقل للدائرة من الدائرة الواقعة على اللوح ليس من انفصام بين الواقع والحقيقة، أو من ابتعاد بينهما. فلما أجاب الرسول على

سؤال وجهته إليه إحدى العربيات عما يجب على المؤمنة: أن لا تسرق ولا تزني فقالت صاحبة السؤال مدهوشة وهل تسرق الحرة أو تزني يا رسول الله؟ ولم يبد فيما ترك لنا الجاهليون من مآثرهم التضاد بين الرحمن والشيطان كما يبدو ذلك في آداب الشعوب السامية المتفرعة من أرومة العروبة؛ حتى لقد أهمل، إذ ذاك، الشيطان رمز الشر المضاد للرحمن إهمالاً كلياً. وهل يرجع السبب في الاختلاف بين الجاهليين وبين الشعوب السامية الأخرى لغير سبب الاختلاف بينهما في الأصالة؛ ظل الجاهليون على الفطرة، مقيمين قواعد الزواج على الاصطفاء في الأخلاق وظلت لغتهم ركائز تسند عقولهم في صبوتها إلى المثل الأعلى. في حين كانت الشعوب السامية تنحدر بالهاجنة مبتعدة عن حقيقتها بنسبة إيغالها في الانحراف عن مقومات الأخلاق. وهل للندامة والحسرة في الآداب الدينية معنى غير رؤية الواقع المنحرف على ضوء الحقيقة؟ في جو كهذا يبدو المثل الأعلى أمنية بعيدة المنال، يتوقف تحقيقها على عالم آخر.

ألم نعان نحن أحفاد الجاهليين، ما كانت تعانيه الشعوب السامية من انحرافها عن الأصالة في البنية واللغة؟

ألم نشعر من جراء الاختلاف بين العامية والفصحى، بأن كياننا قد أصبح كالجسم الذي خرجت فيه العظام من أحقاقها؟ لم تفقد الكلمة العامية بيانها وحسب، بل أصبحت مشوهة يوحي تشويهها بشعور تخلف الشيء عن مقوماته الأساسية.

ألا يرجع لنفس السبب أمر تحول الشعوب الحديثة عن المثالية إلى الوجودية؟ ألا تدعو لغات هذه الشعوب، بتحولها الدائم، إلى نزعة انطلاق الغرائز والميول لسجيتها مستقلة عن مراقبة مثل أعلى يتعداها؟ أليست الوجودية نظاماً فكرياً، أقيم، على صعيد التأمل، للتعبير عن تلك النزعة؟

ولكن إذا كانت الغرائز تعين، للحيوان حدود نظام حياته، فإن الميول، عند الإنسان، قد تنطلق متخطية حدود ما يقتضيه نظام حياته بحيث يصبح ألعوبة تتقاذفها أهوائه. بدلاً مما ينسقها ويجعلها طوع إرادته، وإذا ما فقد الإنسان سيطرته على ميوله تحولت الحياة عن أغراضها عن حكمة وجودها إلا وهي أن يكون سيد مصيره.

وذلك ما يوحي بأن بعثنا القومي سيكون. في الوقت نفسه، رسالة إنسانية تهتدي الأقوام على هدايتها سواء السبيل.

***

الطابع الشعري للكلمة العربية

ثلاث كلمات مشتقة من فعل "شَعَر": شعور، شِعر، شَعْر، توضح الحدس العربي في الشعر والحدس يزداد وضوحاً إذا لوحظت العلاقة بين "شَعَر" وبين أرومتها "شعَّ" فكأني بالذهن العربي يقول: إن الشعور ينبعث من الوجدان لدى التجاوب الرحماني بين الأخوان كما ينبت الشعر من الجلد، وليس الشعر إلا عبارة الشعور. وقدر الشعر يتبع أمرين: عمق المعنى (الشعور) وبلاغة العبارة. ويكون التزام الشاعر بشعره بنسبة ما يلخص حياته أي بنسبة ما يكون عميقاً وأما الشعر المقتبس من الآخرين فمثله كمثل الشعر المستعار، لا يكلف التخلي عنه كثيراً من العناء.

مم يتألف الشعر؟ من معنى، ومن إيقاع صوتي تنتقل على موجه تجربة الشاعر الفنية إلى القراء أو إلى المستمعين،

ومن خيال مرئي يضفي رواءه على العبارة الصوتية، كما يبدو في البيتين التالين: أولهما لامرئ القيس والآخر لطرقة.

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى
بناظرة من وحش وجرة مطفل
سقته أياة الشمس إلا لثاته
أسف ولم تكدم عليه باثمد

وكذلك الكلمة العربية، تتالف من صوت بياني ومن خيال لمرئي ومن معنى قوام تآلفهما. وأما الخيال المرئي فتوحيه أخوات الكلمة ذات الطابع الحسي: فكلمة "أرملة" مثلاً، تحمل طابع الرمل الذي كانت تطلي المرأة وجهها عندما كانت تشيع جثمان زوجها إلى القبر، وكلمة "ذَنْب" تحمل طابع الذنب من حيث ملاحقة صاحبه والحط من قدره، وكلمة "ثوب" توحي بأن العمل يلبس صاحبه كما يلبس الثوب الجسد، وكلمة "عدالة" توحي بالنظام، بالاتزان "عدلي الفرس". وكلمة "ذكاء" تحمل طابع ذكاء الشمس من حيث الإشراق.

وقد يبلغ الإيحاء مداه في الكلمات المنحوتة: فكلمة "سلحفة" مثلاً منحوتة من "سل" و"لحف" فتوحي بأن السلحفة تسل وهي ملتحفة بقوقعتها، وكلمة "ضفدعة" منحوتة من "ضفة" و"دعا" فتوحي بالضفادع على ضفاف النهر وهن يدعون بعضهن بعضاً، وكلمة "عبقري" منحوتة من "عبق" و"قر" فتوحي بالزهرة التي تنثر العطر بصورة مستمرة، وكلمة "جمهورية" منحوتة من "جم" و"جهر" فتوحي بجمع يعلن عن رأيه جهراً.. الخ

وأما البيان الصوتي فيرجع إلى العلاقة الطبيعية بين المعنى واللفظة في الكلمة العربية. نشأ اللسان العربي من عبارة الهيجان الصوتية.. والكلمات: أخ، أخوان، أخوة. إنما هي تحولات لصوت التوجع: آخ. وليست الكلمات: أن أنيناً، وعن عنيناً، وحن حنيناً.. الخ إلا تحولات لعبارة الهيجان "ءِ ن".

هناك مجموعة أخرى من المصادر مدت بها الحياة الذهن في صوغ الكلمات: وهي الأصوات التي تحدث في الفم، ومعناها هو ما يوحي به نمط حدوثها: بت: صوت

يحصل من تقاطع اللسان مع النطق فيوحي بمعنى القطع، ومنها بتر والباتر، وبتل والبتول "المنقطع عن الزواج"

وكذلك الكلمات: قد وقدر وقدس، وقض وقضم.. الخ ولما استعان الذهن العربي بالأصوات الطبيعية كصوت خر الماء خريراً، مثلاً اتخذ العلاقة بين الماء وبين ما يحدث من صوت، قاعدة في الاشتقاق. اتخذ تأثير الماء في مجراه خرباً أو خروجاً، أو خرقاً قاعدة في إيجاد الأفعال:

خرب، خرج، خرق.. وذلك بإلحاقه حرف "ب" أو حرف "ج" أو حرف "ق" إلى صوت آخر.

هكذا تبقى الكلمات العربية امتداداً للأصوات الطبيعية فتوحي بمعناها.

وبهذه المناسبة نتناول مسألة الأعراب. المسألة التي طال اللغط فيها من قبل المتطفلين على الثقافة العامة. إن الاعتراض على الإعراب هو اعتراض على مشيئة الحياة في جعلها الظواهر من الشعور في الهيجان بمثابة الجسد من الروح، تستجلي الظواهر الشعور وتجسده بحيث يتيسر لها نقلة حياً إلى الآخرين. وتستجلي العبارة الصوتية كوامن الحياة وتجسدها فيتم نقلها حية إلى المستمعين. إنه على قوة

العبارة البيانية يقوم أمر التأثير في الجماعة وحملهم على رفع الحيف وعلى التعاون على تحقيق الأهداف المشتركة.

والحركات في الإعراب: الضمة، الفتحة، الكسرة إنما شأنها تمهيد لذهن المستمع للتجاوب الرحماني مع مضمون العبارة. فالفتحة توحي بالركون تبعاً لركون اللسان عند حدوثها في الفم. فهي إعراب المفعول تعبيراً عن ركونه لاحتماله فعل الفاعل وهي إعراب الماضي تعبيراً عن انقطاعه عن الحياة، عن دخوله في عالم الإمكان. والضمة توحي بالفعالية تبعاً لتدافع الصوت عند حدوثها في الفم. فهي إعراب الفاعل الفعال، وهي إعراب المضارع، حاضر ينزع إلى المستقبل، والكسرة توحي بالنسبة تبعاً لحدوثها من كسر الشفتين ورجعتهما لصاحبهما.

وأما المعنى فهو حدس ينجم من الوجدان نجوم الإلهام، كمعنى لتجربة الشاعر الفنية. وهو يدعو صاحبه إلى الإفصاح عنه بالمعبارة الصوتية كما يدعو الإلهام الفنان للإفصاح عنه بالقطعة الفنية. والإفصاح عن الحدس في اللغة وإن بدا لأول وهلة خاضعاً لقواعد التداعي أي لدعوة صورة لصورة أخرى نظراً لما بينهما من علاقة اقتران أو تضاد أو

مشابهة فإنه ينكشف للمتأمل انكشاف الإلهام من خلال الأنغام في الأنشودة. وهناك مجموعتين من الكلمات تؤكد صدق وجهة النظر المتقدمة.

نقول برد القر، وقرارة النفس، وقر، وقرأ.. فكيف اجتمعت كلمات مختلفة في المعنى إلى هذا الحد تحت عنوان واحد؟ هناك دويبة تحدث صوت "قر" يطلق عليها اسم قر قرير. ومن هنا صوغ كلمة قر وقرأ. هذه الدويبة تعيش في الأنهار أثناء الشتاء ومن هنا برد القر. وتعيش في قاع الأنهار ومن هنا صوغ القرارة.

والمجموعة الأخرى من الكلمات هي: أج أجيجاً: صوت. وأجيج النار لهبها وماء أجاج: ماء مالح. فكيف اجتمعت هذه الكلمات تحت عنوان مشترك رغم الاختلاف بينها في المعنى! أج هو صوت ذكر الحمام عندما يحوم حول الأنثى والحمام إذ يحوم حول أنثاه ينفش ريشه ويحمى وكلمة حمام من الحماوة ومن هنا العلاقة بالنار. ولما ينفش الحمام ريشه يصبح كالبحر المهاج ومن هنا الاقتران بين الملوحة والموج فالماء.

وكلمتا "در" وضدها "فر" يرجعان بالاشتقاق إلى مصدر مشترك هو تر صوت سقوط الماء متقطعاً. وكلمتا عد (عدد) وعدم ضدان يرجعان إلى نفس الأرومة. هذا وكثير من الكلمات تعني الشيء وضده معاً.

والكلمات التي تتضمنها أسرة "ذكاء" تكشف بمدلولاتها الحسية والعقلية عن تجليات الحدس العربي في الأمر، كما تكشف كلمات القصيدة عن تجربة فنية واحدة. (راجع كتابنا العبقرية العربية في لسانها).

***

المغزى الثقافي للاشتقاق

بـدأت اللغـة بدايـة طبيعيـة، بـدأت بعبـارة الهيجـان الصوتية، وليست اللغة الطبيعية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان إلا مجموعة من الأصوات والحركات التي تعبر عن الشعور في الهيجان. ولكل نوع من الأحياء عبارته الخاصة بالتعبير عن تحسساته ومشاعره. وأما اللغة الإنسانية فهي استثمار للعبارة الطبيعية وذلك من أجل استجلاء الحدس الذي تتفتح عنه النفس، فإذا كانت العبارة الطبيعية أي بوادر الهيجان وسيلة تستعين بها الحياة لتحقيق الشعور، فإن العبارة التي يتبناها العقل أي الرموز تهدف أول ما تهدف إلى الإفصاح عن المعنى، وفي الإفصاح أزكاء للحياة والمعنى مثل البوادر من الشعور كمثل الجسد من الميول، ومثلهما كليهما كمثل القصيدة في استجلائها الهام الفنان. أو لم

يشار إلى أن الآراء في تجاوبها بين النفوس على مثال النار في انتقالها بين الوقود.

هكذا تكمن الإنسانية في الشعور بواجب الإفصاح عن الحقيقة وبواجب نقلها للآخرين. وإنما اللسان أداة هذا الشعور المميز للإنسان.

ولكن المعنى المستيقظ لا يقف عند عبارة الهيجان الصوتية، فإنه يتخطاها إلى أصوات تحدث في الطبيعة كصوت خرير الماء، وإلى أصوات يلاحظ حدوثها في الفم كصوت بت مثلاً، وما زال اللسان العربي يحتفظ بمبدأ الانتقال هذا من صوت الهيجان إلى الأصوات الأخرى.

كان الذهن العربي قد استند إلى صدى الصوت المحدث في النفس في صوغ فريقاً من الكلمات، من الأصوات المحدثة في الفم ولا سيما الحركات وعليها تقوم جميع الصيغ في اللسان العربي (الفاعل، المفعول، المكان، الزمان، الآلة.. الخ). ولما كان صدى الصوت في النفس يتسم بسمة الانفعال، فقد أصبح هو المبدأ الذي يستند غليه المعنى في تقمص الأصوات الطبيعية (خر الماء خرخر. تر الماء ترتر.. الماء...) مثل المعنى المستيقظ في تقمصه الأصوات كمثل

الفنان في إنشائه الصور بالمجاز أن الحياة في مرحلتي تطورها تستعين بالشبه في الانفعال (صدى الصورة في النفس) على التردد بين المتشابهات.

هكذا كان الانفعال أساساً للانتقال من عبارة الهيجان الطبيعية إلى أصوات مستحدثة في الفم فإلى الأصوات في الطبيعة.

هناك عامل آخر ساعد على فك الصورة عن الشعور وجعلها أداة يتصرف فيها الذهن إلا وهو الاختلاف في الشعور بين ما ينبعث من الصميم وبين ما يوحي إيحاء. شتان بين الولد ثمرة الحياة وبين الولد المتبنى، الأول تتمخض عنه الأحشاء، والآخر يداعب مشاعر الأمومة فقط وشتان بين الشاعر الملهم الذي تزدهر حياته بالمعاني وبين الهاوي الذي يتأمل في ما أنجبته قرائح الآخرين. إلى تميز الذهن هذا بين شعور منبعث من الصميم فتشخصه العبارة، وبين شعور توحيه العبارة، يرجع أمر تردد الذهن بين الحقيقة والعبارة ألا يرجع إلى هذا التردد أمر الحرية، حرية اشتراك المرء مع العناية في تعيين مصير الإنسانية.

ولكن إذا كان أمر تحرير المعنى عن العبارة قد أدى إلى إنشاء خيال يقوم مقام الطبيعة في بعث المشاعر وفي استدراج الآيات إلى الوجدان. فإن هذا التحرير هو مصدر الضلالة والأوهام والكذب أيضاً.

في البداية، كان الشيء واستجابة الذهن عليه والكلمة التي تعبر عنهما تؤلف كلا واحداً مما أدى إلى التداخل بين الوجود والوجدان، تداخلاً أثقلت به الحقيقة فتعثر من جراء ذلك العقل في تقصيه الحقائق. وكيف تم للعقل أن يتحرر من أراجيف الانفعالات، بل كيف تيسر له أن يدرك الحقائق الكونية والحقائق الذاتية (الإنسانية) مستقلة عن صداها في الوجود.

شقت الحياة طريق صعودها نحو الإنسانية بحس الرؤية ذي الوضوح والدقة، ولدى التأمل في بنيان كلامنا ينكشف لنا هذان الأمران، أولهما: أن الذهن قد استعان بالرؤية في صوغ الكلمات من الصوت كاستعانته بخيال الفقاقيع عند صوغه الكلمات: فقأ وفقح وفقص.. الخ. من صوت فق الماء فقفق، وثانيهما أنه قد ترجم المشاعر والإحساسات المبهمة بلغة الرؤية المبينة. مثل حس الرؤية في

تحريره الأشياء والمعاني من صداها في الوجدان كمثل العلم في تحريره العقل من وجهة نظر الإنسان وأي مبلغ من الاستقلال بلغت الحقيقة عندما انسجمت السماوات والأرض في نفس النظام (قانون نيوتن). وأي مبلغ من الرفعة بلغ الإنسان عندما تلألأت الآيات (الحق العدالة، الخ..) في عليائها مستقلة عن الأهواء استقلال الكواكب عن الغيوم. وقد أبلغت الآية بياناً عن نمط الحياة في تطورها: كانت السماوات والأرض رتقاً ففتقناهما، أي كان بعضها ملتبساً ببعض فكان يخيم عليها الظلام (الإبهام والغموض) ثم تباين قطباها فانتهى التباين بأن ازدانت السماء بالنجوم وازدهرت الأرض بالأحياء، يا لها من حقيقة تلخص سر نمط التطور في الأحياء والإفهام.

فإذا كان العلم يحرر، بتساند حقائقه، الذهن من انفعالات الحياة، فإن الاشتقاق في اللسان العربي هو أيضاً يمد الذهن بنفس الأسباب. إلا يرجع إلى الرابطة الاشتقاقية أمر انبعاث الخيال المرئي في الكلمة العربية، فتحويل هذه الكلمة إلى صورة مجازية؟ ألا يرجع إلى هذه الرابطة انبعاث

خيال الرمل من كلمة (أرملة) مثلاً، أو انبعاث خيال الحصن من كلمة حصان؟

ولدى التأمل في الكلمات المشتقة من ذات المصدر المعبرة عن المحسوسات منها والمعقولات يبدو قطبا الذهن جلياً، المعنى والصورة، ويبدو أيضاً انكشاف الذهن بتجاوب قطبيه، تارة يوقظ المحسوس الذهن، تارة أخرى يوجه المعنى الذهن نحو المحسوس، ونحن نوضح وجهة النظر المتقدمة بالمثال التالي:

كلمتا "حرية" و"حرارة" هما من نفس المصدر، والحرية هي الأصل، فلما شعر الحر بالغيرة دبت فيه الحرارة، فمن الشعور بالحرارة المرافقة انتقل الذهن إلى الحرارة في الطبيعة. وذلك بالاستناد إلى مبدأ المشابهة في الجو Affection هذا بينما كلمتا ذكاء في النفس وذكاء في الطبيعة يرجعان إلى مصدر (د ك) المتضمن معني الدلك، الشرارة، اللمعة، وفي المثال الأخير يظهر طابع المحسوس أصل في الأسرة.

والتأمل في الرابطة الاشتقاقية يكشف لنا عن أمور أخرى، ففي كل أسرة من الكلمات العربية يكون

المحسوس تعريف بالإشارة للمفهوم المجرد، كتعريف الشريعة بالشارع مثلاً (قاعدة تسلكها الناس في علاقاتهم بعضاً ببعض) ومن خلال الكلمات المشتقة من ذات المصدر تظهر قواعد الأفكار، الاقتران والمشابهة والتضاد. فتارة يخضع الذهن في صوغ الكلمة إلى الاقتران، وتارة أخرى تعمل المشابهة عملها والكلمات المعبرة عن معنى التضاد كثيرة الورود في المعجم.

وقد تكشف الرابطة الاشتقاقية عن الحدس الذي يبدو في النفس عندما تستجيب على منبه ما فترفع الذهن عندئذ إلى ما يتخطى المحسوس نحو بنية الحياة الإنسانية نفسها.

"راجع كتاب المؤلف: العبقرية العربية في لسانها".

***

منزلة البلاغة عند العرب

عـرّ الظـبي: صـات ــ وكلمـة "عـرب" مـشتقة مـن عـرّ بإلحـاق حـرف "بـاء" إليهـا مـن الحـرف الـذي يفيـد الظـاهر الواضح، بحسب مخرج حدوثه من انفتاح الشفتين. وبناء على ما تقدم فإن كلمة "عرب" تعني صوتا ذا بيان، وهكـذا ورد الحديث: أعربت السيب عن نفسها: أفصحت وأبانت.

وإذا اشـتق العـرب اسمهـم مـن الـصوت، فقـد اكتـشفوا الصفة التي يتميز بها الإنسان عـن البهيم الحيـوان، فوصـفوا بهـا أنفـسهم. وإذا هـم نعتـوا غيرهـم بـــ "العجـم" فقـد أرادوا إظهار الاختلاف في القدرة على البيان بينهم وبـين غيرهـم مـن الأقوام. عجم من عـج (العجـاج) مـع إلحـاق حـرف "مـيم" الـذي يحـصل مـن انغـلاق الـشفتين فيفيـد الإبهـام. فكـأن الـذهن العربي يشير بذلك إلى الإبهام في لغات الآخـرين، علـى اللغـط عندهم ومن هنا العجموات.

حدثني قرويون من القرى المتاخمة للبادية فقال أحدهم: إن أعرابياً من البادية وجه إليه السؤال التالي: كيف تمضون أوقاتكم أنتم معشر الفلاحين؟ أجاب: محدثي القروي بأنه يمضي أوقاته بالعمل منذ الفجر حتى غروب الشمس في حراثة الأرض وفي البذار، وجمع المحصول والدراسة.. الخ. فرد عليه البدوي مندهشاً: متى، إذن، تجلس مع الرجال فتتعلم فنون الكلام؟...

هو ذا العربي على فطرته، يهتم أول ما يهتم بفن الكلام، بالفن الذي يميز الإنسان عن الحيوان. وبعد ذلك أفمن العجب أن أتى اللسان العربي مستوفياً شروط البيان، لا سيما وقد اشترك منذ فجر التاريخ حتى اليوم في نحت كلامه، أبناء أمة بأجمعهم، مستعينين على ذلك بالأصالة والذكاء.

وهاك نكتة طريفة عن تفوق العربي في فن الكلام على غيره من الناس، حدثني عامل في معمل الإسمنت بدمشق وعهد الحديث يرجع إلى سنة 1938 وقت هجرتنا من انطاكية فقال: إن العمال موزعون في المعمل على فرق وكان كل فريق من غير العرب يختار من بين العمال عاملاً

عربياً يرفه عن أذهانهم بقص القصص عليهم. وهم يقومون، بدورهم، بحصته من العمل.

فما هي المعجزة التي دعت إلى أكبار العرب لنبيهم محمد؟ أهي معجزة شفاء المرضى، أم هي البلاغة في البيان؟ إن الاختلاف بني أمة أصيلة وبين أمة هجينة إنما هو اختلاف في الحساسية للجمال أو للنفرة من البشاعة. وهكذا كانت المعجزة في نظر أجدادنا الجمال والكمال لا ترميم العطب في الحياة.

وكذلك كان شعراؤنا في الجاهلية، يرتشفون الحياة من ينبوعها فينشدون مفاتن الجمال. ولم تبدأ الثورة على البشاعة إلا في عهد الانحطاط حين تفشى الفساد وعم الاعوجاج.

وأما البلاغة عند العرب فتتلخص بالقول المأثور: خير الكلام ما قل ودل. حينما كنت طالباً في باريس تعرفت إلى أحد الزملاء في الدراسة وكان الزميل من أوروبا الشرقية وأثناء الحديث سألته عن اسمه وكم كانت دهشتي عندما استعرضت الحروف التي يتألف منها ثماني وعشرين حرفاً.

قلت لزميلي: كلامنا يتألف مبدئياً من ثلاثة أحرف وذلك يعني أن ذلك يعني أن ذهننا يحتاج في تنقله من فكرة إلى فكرة إلى ثلاثة ـ ركائز بينما ذهنكم يزحف على ثمان وعشرين ركيزة، فنحن، إذن، منكم بمثابة الإنسان من الديدان. هكذا كان لساننا مطابقاً لمشيئة الحياة في اقتصارها الطريق (الإيجاز في العبارة) بغية إنفاق الوقت المقتصد لسبر أغوار الوجود أعمق فأعمق.

وما البلاغة إذا لم تكن إبلاغ العبارة صور كمالها من البيان، وبتعبير آخر إيصال المعنى حيا إلى الأذهان، وأي لغة تتمتع بما يتمتع به لساننا من القدرة على الإيحاء. فإذا كان البيان في لغات غيرنا من الأقوام يقف عند الأسلوب (سياق العبارة) فإن البيان في لساننا يتناول فضلاً عن الأسلوب الكلمة ذاتها، حروفها وحركاتها. وهاك بعضاً من الأمثلة عن ذلك.

فكلمة "سلحفاة" منحوتة من "سل" و"لحف" فتوحي بمدلولها: زاحفة تسل وهي ـ ملتحفة بقوقعتها. وكلمة "ضفدع" منحوتة من ضفة (نهر) ودعا فتشير إلى مخلوقات تجتمع على ضفاف الأنهار فيدعو بعضها بعضاً. وكلمة

"عبقري" منحوتة من عبق (الزهر) وقر فتدل على زهرة تنشر العطر بصورة دائمة. هكذا بدأ الإبداع للذهن العربي، على مثال العطر الذي يزين الزهرة. وكلمة "نبغ" توحي بحروفها وبنظام هذه الحروف بأن الإلهام ينبثق من تحت الشعور متعالياً إلى ساحة الوجدان وأما الحروف فيفيد كل منها، بحسب طريقة حدوثه، المعاني التالية "ن" الصميم "ب" الظهور "ع" الغيب.

وهاك ناحية بيانية خاصة بلساننا وهي الخيال الرؤية. هذه الخاصة الفريدة توضح المعاني المجردة وتعرفها: فكلمة "ذكاء" الشمس، تعرف الذكاء كلمعة في النفس. وكلمة "شارع" ـ تعرف الشريعة كقواعد إجماعية يسلكها الناس في علاقاتهم بعضاً من بعض. وكلمة "رأس" تعرف الرئيس كمحل التقاء أماني وآمال القوم.

ولذا فإذا قيل: إن من البيان لسحرا، فإن القول يعني، بصورة خاصة، اللسان العربي.

الوجهة التربوية للكلمة العربية

تحدثنا عن ثلاث مزايا للكلمة العربية: الفلسفية والأخلاقية والشعرية، فقلنا فيما يتعلق بالوجهة الفلسفية للكلمة العربية: إن الكلمات المختصة بالشؤون الإنسانية توحي بتجربة الحياة الأولى، كما تجلت لأجدادنا عفو الخاطر على مثال إشراق الإلهام في نفس الفنان، حتى لكأني بلغتنا معجم نظمته الحياة نفسها، فسجلت فيه تجلياتها. وإن هذه الكلمات الموضوعة، بتعاون بين الفرد والعناية، لتنزع إلى صيغ هي بمثابة المثل فتوجه الذهن بنزعتها المثالية هذه إلى إبلاغ كل شيء كماله، نزعة تدعم النفس في ميلها إلى الواجب والإصلاح، وإن المعاني التي توحيها كلماتنا ليست بمجردة فتبقى طافية على سطح الوجدان كما تطفو الأوراق المنفصمة عن أغصانها على

سطح الماء، بل إنها مكتسية بحلية من الشعر (البيان الصوتي المرئي) تجعلها حية ذات جذور في صميم الوجدان.

والآن نتحدث عن مزية رابعة للكلمة العربية وهي طابع هذه الكلمة التربوي. ونحن نعني بالتربوي المعنى المتضمن في الكلمة، معنى النمو: ربا يربو. إن الإنسان مزدوج الطبيعة: شعور وجسد. فمن حيث هو جسد ينمو بالقوت، بالغذاء الذي يتمثله فيساعده على انكشاف ما ضمر في مصور حياته من استعدادات، ومن حيث هو شعور ينمو بالوعي، باتصال الذهن بالحقيقة، والحقيقة من النفس بمثابة القوت من الجسد.

تبدأ الحياة بإنشاء مظاهرها سليقة، ثم تتأمل فيما أنشئت فترفع به عن مستوى الغريزة إلى صعيد الوجدان وبهذا الصعود ينتقل الإنسان من عهد الناموس (العرف) إلى عهد روح القدس (المعاني) منبثقة من أعماق النفس. وعندئذ تبلغ الحياة في الإنسان سن الاستواء، سن الازدهار بالمعاني، كما تبلغ الشجرة كمالها بالزهر المنبعث من صميم كيانها.

إن للعودة بالتأمل إلى ما نسجت الحياة عفواً من عرف ولغة أثراً آخر لا يقل عن إزكاء الشعور وإيصاله إلى مستوى الإبداع والعبقرية ألا وهو الانسجام مع عبقرية الأمة نفسها. وهل للبعث من معنى غير هذا المعنى، وكم نحن مفتقرين لأن تكون استجابتنا للأوضاع المستجدة وللمعاني المستحدثة استجابة صادقة تجعل قواعد حياتنا وكلماتنا مستوفية شروط نهضتنا ولاسيما، قد أصبح الاختلاف بيننا وبين أجدادنا في استعمال اللغة مماثلاً للاختلاف بين من يدرس تشريح اليد فيتعرف على حركاتها معرفة خارجية وبين من يحرك يده بالبداهة الطبيعية.

وكيف نوقظ الشعور فنجعل الانسجام بين الشعور المستيقظ وبين عبقرية أمتنا فتؤكد بعثنا بعثاً تصبح فيه استجابتنا لمنبهات البيئة استجابة أصيلة.

جرت العادة في استعمال المعجم عندنا أن يرجع إلى الفعل، كمصدر للاشتقاق، في تعيين معنى الكلمة: إرجاع كلمة "خارق" إلى فعل "خرق" مثلاً. في هذا الاستعمال قسط من الوعي يظهر تفوق لغتنا في تأثيرها التربوي على اللغات الأخرى (الوصول إلى الفعل من خلال صيغ الكلمات

المختلفة. وجرت العادة على تعيين إعراب الكلمة على الفتح أو الضم أو الكسر، بناءً على وظيفتها في الجملة لا على موضعها فيها وذلك هو أيضاً يزكي الشعور إيما ازكاء. ولكن فقهائنا في اللغة لم يستنفدوا جميع الإمكانيات التربوية التي تضمنها دراسة لغتنا. لم يشر المعجم إلى العلاقة بين فعل "خرق" وبين كل من الأفعال: خرب، خرج، خرد، خرذ، خرم.. الخ). ولا إلى العلاقة بين الأفعال المتقدمة وبين أرومتها التي هي صوت: خر الماء خريراً. كما وأن النحو لا يشير إلى الأسباب التي تجعل الفاعل والفعل المضارع متحركين على الضم، ولا للأسباب التي تجعل المفعول والفعل الماضي أن يكونا متحركين على الفتح.. الخ. مما دعا بعض المغلفين للمطالبة بالاستغناء عن الإعراب، فلو تتبع الفقهاء الأفعال في تسلسلها حتى الصوت الطبيعي مصدر الاشتقاق، ولو لاحظوا ما هو مشترك بينهما من صوت (هنا الخرير) ومن هنا خيال تأثير الماء في مجراه خرباً وخروجاً وخرداً، وخرقاً، ولو قاموا بذلك لأدركوا نشوء كلماتنا من مصادرها في الطبيعة.

وأمـا الحركـات والحـروف فهـي امتـداد للعلاقـة بـين العبـارة الـصوتية والـشعور بالهيجـان. فكمـا أن لكـل مـن الغضب والفرح عبارته، فكذلك كل صوت محدث في الفم معناه الذي هو صدى حدوثه في النفس وصدى حدوث الضمة هنـا الفعاليـة، والـضمة تعـبر عـن الفعاليـة أينمـا وجـدت، في صـلب الكلمـة أو في آخرهـا ههنـا نعيـد بعـضاً ممـا وردفي رسالتنا العبقرية العربية في لساننا، بخصوص نشوء اللغة:

"إن العبقرية العربيـة قـد اسـتندت في إنشائها أداة بيانها إلى المـداد المنطـوى في الـصور الذهنيـة وإلى تعـديل مظـاهر الحياة المختلفة بالصوت الذي هـو طـوع إرادتهـا وبالرؤيـة الـتي هـي ذات تلـون ودقـة وهـل يختلـف نهـج العبقريـة هـذا عـن نهـج الحياة أهـي تعـدل حركـة الـضم العـضلية بالـصوت والـصوت بالرؤيـة، متنقلـة بهـذا التعـديل إلى مـداد أخـذ بالدقـة، مـداد تقتصر به الجهد اللازم لإنشاء درجات صعودها نحـو إنسانية متكاملـة؟ إن اللـسان العربـي بمبدئـه المعنـى وبتجلياتـه الأصوات هو على غرار البدن شجرة سحرية نامية، جـذورها في المـلأ الأعلـى (المعـاني) وتجلياتهـا في الطبيعـة. وإن مـا يجـب

علينا والحالة هذه أن نبدأ بعثنا القومي ببعث كلامنا، وأن نحذر على صرحنا هذا من الدخلاء على بيئتنا".

وتحقيقاً لذلك يجب أن نستقي في دراسة لساننا، نمط الحياة في إنشائها إياه مرتقين حتى جذور الكلمات في الأصوات الطبيعية، وحتى انبثاق المعاني من الملأ الأعلى.

ملاحظة(1):

إن اللسان العربي يختلف بالتكوين عن لغات أوروبا، وخاصة عن اللغة الفرنسية، هذه تاريخية حصلت منظومة ألفاظها عن اللاتينية، وفق عبقرية سكان فرنسا وبتأثيرهم، واللغة اللاتينية نفسها قد تم تكوينها على الطريقة ذاتها. كل من هذه الشعوب اقتبس عن غيره أداة بيانه، ثم حرف مجموعة الألفاظ المقتبسة بحسب مقتضيات عبقريته.

وأما اللسان العربي، فهو طبيعي، تتصل الكلمات المستحدثة فيه بالأصوات المقتبسة عن الطبيعة، مثله كمثل الجسد، كما يرجع بالقدرة التي تتألف منها خلاياه إلى

الطبيعة ويدل بوجهة منظومة هذه الخلايا على نوع الحياة، كذلك هي الكلمات العربية، ترجع بمعناها إلى النفس وبمنظومة ألفاظها إلى الطبيعة.

ملاحظة (2)

إنه لمن الثابت، بحكم التاريخ، أن اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية، قد حصلت من تحول اللغة اللاتينية. وكان ذلك بتأثير عوامل سياسية اجتماعية. وأنه لمن الثابت بحكم التاريخ أيضاً أن اللغة الفرنسية هي لهجة منطقة باريس. المنطقة التي طبعت مقاطعات فرنسا الأخرى بطابعها السياسي الثقافي فجعلت لهجاتها تتراجع أمامها فتندثر.

وأنه على هذه الدراسة قد قام الزعم بأن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الأخرى علاقة أخوة ترجع بأصولها إلى لغة الأم التي هي لغة سامية بائدة، وأن ثمة لهجات عربية تقلصت أمام طغيان لهجة قريش، لهجة الديانة والسياسة. ولقد جارى بعض المغفلين من أبناء الوطن المستشرقين في هذا الزعم القائم على افتراض وجود أسرة

لغات سامية على غرار أسرة اللغات اللاتينية. وعلى افتراض وجود لهجات عربية مختلفة في الأصول وفي نمط النمو.

يا له من زعم سخيف!.. لقد فات هؤلاء المغفلين وأولئك المضللين أن الكلمات العربية ذات أصول في الطبيعة وأن مبدأ الصحة فيها قد تعين من قبل الفطرة لا من قبل العرف والعادة.

ملاحظة (3)

ثمة خطأ شائع بين اللغويين، وهو أن العلاقة بين المعنى واللفظة في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة، علاقة اصطلاحية، بمعنى أن اللفظة تشير إلى معناها إشارة فقط بيد أن اللسان العربي ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي به إحياء، حتى أن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة، مما يجعل صاحبه أكثر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق والديانة.

إنما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت عليه.

ملاحظة(4)

ينهج الذهن الأوروبي، في دراسة اللغة، نهج العلم في دراسة الحوادث الطبيعية، أنه ينصرف إلى قوانين الصوت التي تكشف عن تأثير التداعي بالاقتران، أي عن تأثير العادة. في حين أن موضوع اهتمام الذهن العربي هو علاقة المعنى بالصورة الصوتية وتأثيره فيها تأثراً تتثبت به صيغتها.

ملاحظة (5)

تستلزم دراسة اللسان العربي اتجاهين: اتجاه الصوت واتجاه المعنى، فالاتجاه الأول ينبغي أن يتناول ثلاثة مباحث:

1ـ مبحث الأصول: وبه ترجع الكلمة بالاشتقاق إلى الأصوات المقتبسة عن الطبيعة.

2ـ مبحث البيان: وبه تتعين العلاقة بين الصيغة والمعنى من جهة، وبين وظيفة الكلمة وإعرابها من جهة أخرى، على اعتبار أن الصوت بادرة طبيعية للمعنى.

3ـ مبحث الإيقاع: وبه يدرس التصريف والإعلال والإدغام والإبدال.

وأما اتجاه المعنى فينبغي أن يتناول:

1ـ أمر الحدس أو المصمم الذي تكشف عن وجهاته المختلفة، الكلمات المشتقة من المصدر ذاته سواءاً كانت صوراً حسية أو مفاهيم معنوية.

2ـ أمر تعيين ما كان لتداعي الصور والظروف والتاريخ من تأثير في إيجاد عدد عظيم من مشتقاته.

3ـ أمر الكشف عن مغزى القواعد النحوية: مغزى تتضح به العقلية العربية ومراميها في الحياة.

إن الاختلاف بيننا وبين أجدادنا في استعمال اللغة يماثل الاختلاف بين من يدرس تشريح البدن ليتعرف على حركاته معرفة خارجية وبين من يحرك يده بالبداهة الطبيعية.

***

الحروف الأبجدية

في السنين الأخيرة جرت مناقشات حول نشأة الحروف الأبجدية بين ذوي الاختصاص في هذا الموضوع. ففريق منهم زعم أن الفضل في وضع حروف الكتابة الدارج استعمالها عند الأمم المتمدنة يرجع إلى "كريت" وإن كان الفينيقيون، وهم من سلالة الساميين قد نشروها في أرجاء العالم ونحن عندما عقدنا العزم على دراسة اللغات السامية من أجل استجلاء أصول هذه اللغات وإظهار علاقتها بلغة الأم التي هي اللغة العربية وبدأنا بدراسة اللغة السريانية استرعى انتباهنا الشبه بين شكل كل حرف وبين الشيء الذي يمثل أول حرف منه. فشكل الألف يخيل على الغريب صورة إنسان، وشكل (ب) صورة البيت، وشكل (ج) صورة الجمل، وشكل (د) صورة الدلو، وشكل (هـ) صورة الهالة، وشكل (ز) صورة الزند، وشكل (ح) صورة الحبل،

وشكل (ط) صورة الطير، وشكل (ي) صورة اليد، وشكل (ل) صورة اللجام وشكل (م) صورة المطر، وشكل (ن) صورة النجم، وشكل (س) صورة السن، وشكل (ع) صورة العين، وشكل (ف) صورة الفم، وشكل (ص) صورة الصبي، وشكل (ر) صورة الرأس، وشكل (ش) صورة الشمس.

وهكذا أخذ في وضع حروف الأبجدية أول حرف من الشيء رمزاً للشيء نفسه ولكن اتخاذ الحرف الأول من الاسم كرمز للمسمى يدل على جنسية واضع الاصطلاح ولما كانت حرف (الألف) تحتفظ حتى اليوم بلفظها وترتيبها، كما وضعت في الأصل، ولما كانت هذه الحروف تمثل أول حرف من اسم عربي، فقد أصبحت أسطورة النبي إدريس، أول نبي أعطى فن الكتابة، أسطورة صادقة. وكلمة "إدريس" تشير باشتقاقها من درس إلى الحقيقة تلك.

وإذا كان اللغة السريانية ظلت محتفظة بالشكل الأقرب إلى الأصل فإن أصحابها بقوا على هامش التاريخ منزوين. وأما العرب، واضعو الحروف، فقد تطورت

كتابتهم نحو الرمز أكثر فأكثر تطوراً ابتعدت به عن صورة نشأتها.

ونحن نستخلص مما تقدم أن الفضل في وضع الحروف الأبجدية يرجع إلى العرب لا لغيرهم من الأقوام. وإذا كان الأمر كذلك فأي اختراع يضاهي في تأثيره على تقدم الحضارة اختراع الكتابة وتعليمها للعالم.

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
16	بالبل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختـارات مـن الشعر والنثـر إصـدار الرابطـة الثقافية النـسائية فـي دمـشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القـــصيدة الدمـــشقية وقـــصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غـادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبـة قمـر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكـان وسـكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسـئلة الثقافـة فـي القـدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القـصة الـسورية (حضور المكان)- علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقـصة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيـر سـلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالـث وقـصص أخـرى مختارات قصـصية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	لنطـوان تـشيخوف دراسـات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابـــــراهيم الجرادي -عبـد العزيز المفالح	د. ابـــــراهيم الجرادي -عبـد العزيز المفالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختـارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التـسعينيات والأنمـاط الـشعرية السائدة)	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمـي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
48	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	مايلكوفسكي غيمة في سروال	مالك صفور	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليـأس : أمـل يستنسخ أوصافه	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفرلتي مـأخوذاً بـالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـي جعفـر العلاق	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صفور	مالك صفور	2011
55	جـان جـاك روسـو المـصلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	مالك صفور	مالك صفور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صفور	مالك صفور	2012
57	حـي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صفور	2012
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمـد) عـام 1968 مدحـة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صفور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صفور	مالك صفور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صفور	مالك صفور	2012
64	الأعاصـير - الـشاعر الفـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صفور	مالك صفور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومـصارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكلمه		مالك صفور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
75	الفقـه والتـصوف والمـسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمـد رأفـت الحلاق	مالك صفور	2013
76	ّصالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
79	الأديـب والمفكـر أبـو حيـان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	وافعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014